

كلية : التربية الأساسية / حديثة

القسم: التاريخ

المرحلة: الثانية ..

أستاذ المادة : أ.د مظهر عبد علي الجعفي

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ الخلافة الأموية ٤١ - ١٣٢ هـ

اسم المادة باللغة الإنكليزية : History of the Umayyad Caliphate 41-132 AH

معاوية بن أبي سفيان (٤١-٥٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م)

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي، أبو عبد الرحمن خال المؤمنين وكاتب وحي رب العالمين وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ولد بمكة قبل البعثة بخمسة أعوام، وأسلم يوم فتح مكة اتخذه النبي صلى الله عليه وسلم كاتباً للوحي، روى الحديث عن أبي بكر وعمر وعثمان، وأخته أم المؤمنين أم حبيبة وله أحاديث في الصحيحين وفي غيرها من كتب الحديث، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين .

اشترك معاوية في معركة اليمامة ولما بعث أبو بكر بالجيش إلى الشام، سار معاوية مع أخيه يزيد وقد أبلى بلاءً حسناً في فتح المدن الساحلية مثل صيدا وعرقه وجبيل وبيروت وعكا وصور وقيسارية .

اكتسب معاوية ثقة عمر بن الخطاب، فولّاه الأردن كما ولّى أخاه يزيد على بلاد الشام ولما توفي يزيد في طاعون عمواس، أضاف عمر لمعاوية ما كان لأخيه ولما ولي عثمان الخلافة ولّى معاوية بلاد الشام كلها، ثم استقل بها بعد مقتله. ولما بويع علي بالخلافة امتنع معاوية عن مبايعته، وطالب بقتله عثمان بن عفان، وبإيعة أهل الشام على المطالبة بدم عثمان، ومحاربة علي . وما زال الخلاف محتدماً بين الرجلين حتى قُتل علي في عام (٤٠ هـ أوائل عام ٦٦١ م)، ثم تم الصلح بينه وبين الحسن بن علي الذي آلت إليه الخلافة بعد مقتل والده، لكنه تنازل بمقتضاه لمعاوية عن الخلافة .

كان معاوية داهية من دهاة العرب، ومن أوفرهم حظاً بالسياسة، عاقلاً في دنياه، حليماً قوياً جيد السياسة، حسن التدبير لأمر الدنيا، حكيماً، فصيحاً، بليغاً، يحلم في موضع الحلم، ويشد في موضع الشدة، إلا أن الحلم كان الغالب على طبعه، كريماً بادلاً للمال، محباً للرئاسة شغوفاً بها. وهو يُفضّل على أشرف رعيته، فلا يزال أشرف قريش يقدون عليه بدمشق فيكرمهم ويقضي حوائجهم، ولا يزالون يحدثونه أغظ الحديث ويجابونه أقبح مجابهة، وهو يداعبهم تارة، ويتغافل عنهم أخرى، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنوية والصلوات الجمّة ، بهذه الصفات استطاع معاوية أن يكبح جماح المسلمين عامة والخوارج خاصة، وأن يسوس الأمة الإسلامية سياسة تدل على الحكمة وحسن التدبير .

قيام دولة الخلافة الأموية :

أدى استشهاد الامام علي (رضي الله عنه) إلى إزالة عقبة كبيرة من أمام معاوية، لتولي الخلافة، وإن لم يجعل بابها مفتوحاً على مصراعيه له، فقد بايع الناس الحسن بن علي، متحفظين بفعل اختلاف الآراء حول السياسة الواجب اتباعها. أما معاوية فقد بويع بالخلافة في بيت المقدس من قبل أهل الشام، ودُعي بأمر المؤمنين، وإن كانت الخلافة قد أعلنت له من قبل، يوم اجتماع الحكمين .

تحرك معاوية بسرعة باتجاه العراق للسيطرة عليه، وبلغ ذلك الحسن، وهو بالكوفة، فخرج في اثني عشر ألفاً من أتباعه يقودهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وفيهم عبد الله بن العباس، متجهاً إلى المدائن، فلما وصل إلى ساباط شك في ولاء أصحابه بعد محاولة معاوية رشوة قائد جيشه، ونجح في استمالة ابن عباس، فأصبح لا قبل له بمعاوية وجنده، عندئذ أدرك أن موازين القوى السياسية والعسكرية بين القوتين العراقية والشامية لم تعد متكافئة وأشفق على المسلمين من الفتن الدامية، وفضل انتهاز سياسة المفاوضات بهدف حقن دماء المسلمين، خاصة وأنه فقد ثقته بأهل الكوفة بعد أن انسلخت جماعة منهم وخرجت عليه، واتهمته بالكفر، ثم هاجموه وجرحوه .

وعلى إثر المفاوضات التي جرت بينه وبين معاوية خلع الحسن نفسه من الخلافة وسلّم معاوية أمر المسلمين، على أن يكون الأمر بعده شورى. وفي رواية أن الحسن آثر الصلح مع معاوية على أن يظفر بالإمامة ما كان حياً، فإذا مات فالأمر للحسن. ودخل معاوية الكوفة، على إثر هذا الصلح، وبايعه الحسن والحسين واجتمع عليه الناس وسمي ذلك العام (٤١هـ) (عام الجماعة) لاجتماع الأمة فيه على خليفة واحد، باستثناء الخوارج الذين امتنعوا عن مبايعته، وبذلك قامت دولة الخلافة الأموية وأضحى معاوية خليفة الأمة الإسلامية، وقد دام حكمها إحدى وتسعين عاماً هجرياً، تسعاً وثمانين عاماً ميلادياً (٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م) تولى الخلافة خلالها أربعة عشر خليفة، أولهم معاوية بن أبي سفيان، وآخرهم مروان بن محمد الجعدي .

منهجية معاوية السياسية :

لقد انطوت بيعة الحسن لمعاوية على مرحلة مهمة من مراحل التاريخ الإسلامي، إنها طوت العصر الراشدي وافتتحت العصر الأموي، وأدت إلى عودة الأسرة الهاشمية إلى موقع المعارضة في السلطة، بعد مراحل طويلة من الصراع، حيث انتهت جولة أخرى لصالح الأمويين. وبدأ بعام الجماعة عهد جديد من عهود الحكم في الدولة الإسلامية، التي استعادت وحدتها السياسية، مع اعتلاء معاوية سدة الخلافة في دمشق التي أضحت العاصمة المركزية للدولة الجديدة .

لقد كان معاوية أرحب أفقاً، وأبعد مدى من المحيط الذي حوله وكانت تطلعاته إلى قيام دولة إسلامية يسودها الرخاء والعدل، وينتهي فيها سيل الدم إلى الأبد، في رأس اهتماماته، لذلك اجتهاد أن يقيم صرح دولته على عدة أركان لعل أهمها:

١- التغييرات في بنية النظام السياسي، وتتمحور حول دور الجيش، الذي أنشأه ونظّمه منذ أن كان والياً على الشام في تحقيق الاستقرار في الداخل، والتوسع في الخارج.

٢- السياسة الداخلية، وتتناول الإدارة وتحقيق التوازن القبلي وتأمين ولاية العهد، وإخضاع المعارضة.

٣- الإحسان إلى كبار الشخصيات الإسلامية من الصحابة وأبنائهم، خاصة بنو هاشم.

٤- توطيد الأمن في ربوع العالم الإسلامي فاختر، من أجل ذلك، أكفأ الرجال في الإدارة والسياسة ليساعده في إدارة الدولة وتحقيق الاستقرار فيها.

٥- مباشرة أمور الدولة بنفسه، حيث كرس كل وقته وجهده من أجل رعاية مصالح المسلمين.

٦- السياسة التوسعية: فقد اعتمد معاوية في تحقيق ذلك على مواهبه السياسية، حيث كان على درجة عالية من الذكاء والمرونة، فضلاً عن أنه أنشأ علاقات اجتماعية استقطبت الخلفاء وأضعفت الخصوم، واضطرته الظروف السياسية، التي أحاطت بدولته الناشئة، أن يعمل على صعيدين: صعيد التحالف مع السكان الأصليين في بلاد الشام لا سيما المسيحيين منهم، وصعيد التحالف مع أقوى القبائل العربية وهي القبائل اليمنية، التي ساندته في الوصول إلى الحكم، وقد شكلت ركيزة حكمه. وثبتت هذا التحالف زواجه من ميسون الكلبية، وزواج ولده يزيد بامرأة منهم. ويوضح لنا هذا التحالف الخط السياسي الذي اعتمده في علاقاته العامة، لكن معاوية القيسي، وهو السياسي البار، لم تكن تعنيه عصبية ما إلا بقدر ما تخدم مصالحه، وقد هدف أن يجعل العنصر العربي دعامة أساسية لطموحه الشخصي وطموح الطبقة الأموية الحاكمة.

ومن المؤكد أن هذه المنهجية السياسية أدت، من خلال مسارها التنظيمي إلى شكل مختلف، تطورت معه من الخلافة، حسب مفهوم جمهور المسلمين لها، إلى الملكية، لكن من الثابت أن معاوية، وإن طلب الملك، إلا أنه كان يحرص على أن يبقى شيخ العرب أكثر من ملكهم، وأن الصفة العامة للدولة بقيت دينية بحكم أن دستورها الإسلام الذي هو دين الدولة .

أهم الأحداث السياسية الداخلية في عهد معاوية :

أ- حركة الخوارج :

كانت لمعركة صفين نتائج بالغة الخطورة على الوضع الإسلامي العام، وهي خطوة أخرى في الطريق الذي بدأ يقتل عثمان بن عفان، فحينما لاح خطر الهزيمة، رفع أهل الشام المصاحف على أسنة رماحهم، عملاً بمشورة عمرو بن العاص، فأحدثوا في أهل العراق الأثر المطلوب، خاصة في القرّاء الأتقياء، ولقد فطن علي للخدعة، وحذر أتباعه من المكيدة، إلا أنه لم يستطع أن يزيل ذلك الأثر من النفوس، فضلاً عن العقول، بل إن نفرًا من رجاله هددوه إذا لم يستجب إلى كتاب الله. وهكذا لم تذهب كثرة أصحابه

مذهبه، واستكرهته على غير ما أحبوبرزت جماعة في صفوفه عارضت التحكيم، وأنكرت عليه القبول به، والحوأ في أن يمضي بهم إلى القتال حتى ينفذ حكم الله. وهؤلاء هم الخوارج.

ويبدو أن بعض الذين قبلوا إيقاف القتال أدركوا أنهم تسرعوا كثيراً في هذا الأمر الذي حمل في طياته بشائر النصر لمعاوية، مما يهدد مصالحهم بشكل أعظم من ذي قبل، لذلك، أعلنوا توبتهم، وطالبوا باستئناف القتال ومارسوا الضغوط المختلفة على علي كي يستأنف الحرب بعد أن يعلن توبته، إلا أن علياً رفض الإذعان، فما كان من هؤلاء إلا أن أعلنوا التمرد عليه، وانحازوا إلى جماعة الخوارج .

نتيجة لهذا التباين في المواقف اسلح من جيش علي اثنا عشر ألفاً، فلاحقوا بحروراء واعتزلوا فيها، فعرفوا بالحرورية، ومنذ ذلك اليوم نشأ في الإسلام حزب جديد كان له في تاريخه أثر بعيد في الناحيتين السياسية والدينية .

ويبدو أن معاوية كان أبغض إلى الخوارج من علي لاعتقادهم بأنه الحرف عن المسار الإسلامي. ومن جهة أخرى، فقد أقلق أمرهم الخليفة الأموي بفعل عدم تجاوبهم مع الحلول السلمية، فاضطر أن يواجههم بالعنف، من الملاحظ أنه طرأ تعديل على وضع الخوارج ترافق مع التعديل الذي طرأ على وضع الخلافة حين انتقلت من الكوفة إلى دمشق، وقد تمثل بانتقال مركز النقل للنشاط الحروري من الكوفة إلى البصرة، وتمزق الحركة الخارجية قبل نضوجها، وأخذها شكل الحزب العقائدي، لذلك لا يمكننا إلا أن نتحدث عن فرق عقائدية للخوارج، متنافرة ومتعادية، مما أثار سلباً على قدراتهم العسكرية، وأتاح للسلطة الأموية فرصة القضاء عليهم. وكانت معركة النهروان المعركة الأولى والأخيرة التي اجتمع فيها الخوارج تحت قيادة واحدة ضد عدو واحدة وتفرق شملهم بعد ذلك .

وعارض خوارج الكوفة، بقيادة فروة بن نوفل الأشجعي، مبدأ الصلح الذي تم بين الحسن ومعاوية فخرجوا في وجه هذا الأخير، وتقدموا نحو الكوفة، ونزلوا النخيلة، وجرت عدة اصطدامات بينهم وبين القوى العسكرية التي كان يرسلها معاوية لإخضاعهم .

وتعد الحركة التي قادها المستورد بن علقمة (٥٤٣/٦٦٣م) من أكبر حركاتهم ضد معاوية. وقد اصطدم بهم والي الأموي على الكوفة وهو المغيرة بن شعبة، في المذار بين واسط والبصرة وقتل زعماءهم، ونجح في وضع حد لنشاطهم، كما أبعد خطرهم عن الكوفة. وقد ساعده في مهمته: التوزع القبلي للخوارج وأهل الكوفة، وقوة السلطة المركزية، والسياسة الشديدة التي نفذها ضدهم في العراق، واتجاه أهل الكوفة نحو التشيع لآل علي، والجدير بالذكر أن الخوارج حاولوا أكثر من مرة، استقطاب الكوفيين للقتال في صفوفهم، فأخفقوا بل إن الكوفيين آثروا القتال ضدهم مدفوعين بمصالحهم السياسية .

ولزم خوارج الكوفة الهدوء لعدة سنوات إلى أن سنحت لهم فرصة أخرى للثورة على الحكم الأموي بقيادة حيان بن ظبيان السلمي في عام (٦٧٨/٥٥٨م) وانتهت هذه الثورة بمقتلهم جميعاً في العام التالي في معركة جرت في بانقيا .

ونهج خوارج البصرة نهج إخوانهم خوارج الكوفة، فلم يركنوا إلى الهدوء رغم النكبات التي حلت بهم. وتفاقم خطرهم مرة أخرى في العراق في عام (٦٦١/٥٤١م) فخرجوا بقيادة سهم بن غالب والخطيم الباهلي، فتصدى لهم والي الأموي ابن عامر وأخضعهم، ويبدو أنه تساهل معهم وغلب عليه جانب اللين، فاضطر معاوية إلى عزله وولّى زياد بن أبيه البصرة في عام (٦٦٥/٥٤٥م) فتعقبهم بشدة وأخذهم بالشبهة وقتلهم بالظننة حتى تمكن من إخضاعهم ، إلا أنهم نشطوا بعد وفاته في عام (٦٧٣/٥٥٣م) ، فتصدى لهم ابنه عبيد الله الذي ولاه معاوية البصرة في عام (٦٧٥/٥٥٥م) فلاحقهم وسجن بعضهم وقتل البعض الآخر ، ولم يزل عبيد الله والياً على البصرة يطارد الخوارج ويضيق عليهم حتى توفي معاوية. وهكذا لم تهدأ بلاد العراق تماماً طوال عهد معاوية رغم شدة الولاة وعنفهم.

ب - حركة الشيعة :

واجه معاوية، بالإضافة إلى خطر الخوارج، خطراً آخر تمثل بشيعة علي بن أبي طالب الذين انتشروا في الكوفة والبصرة إذ لم يكد الحسن يغادر العراق، بعد أن عقد الصلح مع معاوية، حتى أظهر هذا الأخير الشدة لأهل العراق إنه أراد تطويع أهله بفعل أن هذا البلد يمثل منطقة القلق بالنسبة إلى النظام الأموي. عندئذ أدرك أهل العراق، الذين لم يندمجوا في وحدة الدولة الإسلامية إلا كارهين مرغمين وبظواهرهم لا بقلوبهم، أنّ حياتهم قد تغيرت، وأنهم مقبلون على مستقبل أشد وأقسى مما كانوا يظنون .

ولم تمض أعوام ذات عدد حتى وقدا على الحسن للشكاية من أعمال معاوية وولاته، وتحريضه على ترؤسهم لقتال أهل الشام، ثم الاستماع منه بما يوجههم به. وقد رفض الحسن منهم شيئاً وقبل شيئاً مؤثراً السلم وحقق الدماء. وقد أنشئ في هذا الاجتماع الحزب السياسي المنظم للشيعة وأصبح الحسن رئيساً له، وراح أتباعه ينتظرون في سلم حتى يؤمروا بالحرب.

ومن في ظل هذه الأجواء عين معاوية المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة ومنحه سلطات مطلقة، وتمير حكمه بالتساهل. ولعله هدف من وراء تعيين شخصية مرنة كالمغيرة، مهادنة المعارضة الكوفية. استمر المغيرة في ولايته مدة عشرة أعوام ساهم خلالها عن طريق شخصيته اللينة في تهدئة الموقف السياسي. ويبدو أن الشيعة لم يركنوا إلى الهدوء إلا بقدر ما تسمح به ظروفهم الداخلية، لذلك فقد استغلوا هذه السياسة اللينة من قبل والي، وقاموا بحركة أخرى معارضة للنظام الأموي. وكان من العسير كبت هذه

المعارضة وتحقيق الهدوء في العراق دون استعمال الشدة. لذلك عيّن معاوية زياد بن أبيه والياً على الكوفة بالإضافة إلى البصرة بعد وفاة المغيرة في عام (٦٧٠/٥٥٠م).

مارس زياد هذا سلطة شبه مستقلة معتمداً في سياسته على الشدة حتى ملأ قلوب أهل العراق رعباً ورهباً. وكانت نتيجة هذه السياسة الحازمة أن ضعفت مقاومة الشيعة ولم يرتفع صوت معارض سوى صوت حجر بن عدي الزعيم الكوفي، وكان جزاؤه الإعدام.

ج- الأوضاع السياسية خارج العراق :

يبدو أن الأوضاع السياسية خارج العراق لم تُثر أية هموم جدية لمعاوية، حيث كان الولاة يحكمون دون اعتراض. ففي مصر حكم عمرو بن العاص مدة سنتين ثم توفي في عام (٦٤٣/٥٤٣ م) فخلفه ابنه عبد الله مدة سنتين أيضاً، ثم انتقل الحكم إلى أخي معاوية، عتبة بن أبي سفيان، ثم معاوية بن حديج في عام (٦٤٧/٥٤٧ م). أما الحجاز فكان يستثير معاوية من اعتبار واحد هو استقطابه لعدد من الشخصيات الإسلامية البارزة أمثال الحسن وأخيه الحسين وعبد الله بن الزبير وغيرهم. لذلك وضع هذا الإقليم تحت رقابته المباشرة. فعين عليه ولاة من البيت الأموي لينفذوا السياسة التي رسمها. فكانت المدينة بيد مروان بن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها، كما حرص على تشجيع مختلف النشاطات غير السياسية من شعر وموسيقى وغناء وعلوم دينية، الأمر الذي جعل من مكة والمدينة أهم مراكز الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت.

د- بيعة يزيد بولاية العهد :

تعد مسألة عهد معاوية بالخلافة لابنه يزيد من بعده، من أكثر المسائل التي دفعت الكثيرين للوقوف ضده، وتوجيه النقد اليه، على اعتبار أنه خرج بذلك عن النهج الذي اتبعه المسلمون في اختيار خليفتهم منذ خلافة أبي بكر، وإذا كان النظام الذي تبناه لابد من أن يفرز في النهاية تقليداً وراثياً في الحكم، إلا أن اتخاذ قرار من هذا النوع، لم يكن بالأمر اليسير، إذ لم يكن العرب يقرون من قبل بمبدأ الوراثة في الحكم.

ويبدو أن معاوية خشي انهيار الجهود التي بذلها، خلال أكثر من ثلاثين عاماً، في تأسيس دولة أموية الهوى، خاصة وأن الصراع الدامي بينهم وبين بني هاشم كان لا يزال في أوجه، وأن اختيار هاشمي للخلافة من بعده من شأنه إزالة كل مرشح محتمل من الأمويين من الوجود وهو أمر لا يقبله الأمويون وهم "أهل الملة أجمع وأهل الغلب". كما اعتقد أن مركز الخلافة يجب أن يبقى في بلاد الشام بفعل أن

أهله أطوع للخليفة من أهل الأمصار الأخرى، وأن الاتجاه السياسي الذي يمثله هؤلاء يجب أن يبقى سياسة الحكم والخلافة لأنها السياسة التي أثبتت وجودها في إدارة العرب والمسلمين آنذاك.

رأى معاوية أن الاختيار يجب أن يظل محصوراً في بني أمية، فاختار ابنه يزيد وقد دعاه إلى إثارة ابنه بالعهد دون غيره ممن يظن أنه أولى به، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك وحضور أكابر الصحابة ذلك، وسكوتهم عنه دليل على انتقاء الريب .

وكانت هناك ثلاث فئات من المسلمين متعارضة ومتصارعة، الفئة المتذمرة من الحكم الأموي ذات النزعة الراشدية، وهي تنتظر وفاة معاوية لإعلان موقفها السلبي، وحجتها أن القرار الوراثي يعتبر دخيلاً على العرف العام، وخروجاً على العادات الإسلامية، وتمثلت الفئة الثانية بالقوى المؤيدة للحكم الأموي والمتحالفة معه وهي المستفيدة من استمرارية المشروع السياسي المطروح في حين تمثلت الثالثة بالتيار الشيعي ذي العاطفة الوقّادة التي تخول أهل البيت حقاً سياسياً ودينياً قد يشبه الحق الذي يعطيه الفرس لآل كسرى.

لقد شجع ممثلو الفئة الثانية معاوية على اتخاذ قراره الوراثي هذا مسوّغين ذلك بعدم وجود ما يتعارض وهذا المبدأ في الإسلام. وتشير الرواية المشهورة إلى أن الذي أشار على معاوية بتلك الفكرة هو المغيرة بن شعبه.

قد تكون فكرة المغيرة دافعاً تشجيعياً لمعاوية للمباشرة في اتخاذ إجراءات تنفيذها، إلا أن الراجح أن معاوية قد عزم على تولية ابنه يزيد ولاية العهد ليكون خليفة من بعده، قبل عرض المغيرة، لأنه رأى أن ذلك ضرورة لوحدة الأمة، ومنع الاختلاف بعد وفاته وأنه كان ينتظر الوقت المناسب لإعلان ذلك.

ويبدو أنه كان لزيد بن أبيه، حاكم البصرة، موقف مختلف، حيث أشار على معاوية أن يترئس في هذا الأمر، لأن المشروع سابق لأوانه وحجته في ذلك عدم توافر شروط الخلافة في يزيد فإنه (صاحب رسالة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد)، بالإضافة إلى أن الظروف السياسية لم تنتهياً بعد بفعل أن التيار المعارض كان لا يزال على جانب من القوة، وأنه لا بد أن يلجأ إلى الثورة المسلحة والعصيان، وأثر معاوية الالتزام بنصيحة زياد حتى لا يثير عليه الحسن بن علي وأبناء الصحابة، ورأى أن يترك إعلان ذلك إلى ظروف أكثر ملاءمة.

وفي عام (٥٤٩هـ/٦٦٩م) توفي الحسن بن علي، فشجعت هذه الحادثة معاوية على أخذ البيعة لابنه يزيد، وانتهى إلى التصميم على تنفيذها معتمداً على حلفائه قبائل الشام وفي طليعتهم الضحاك بن قيس الفهري وحسان بن بحدل الكلبي، وكان عليه تذليل بعض العقبات التي اعترضت تنفيذ هذه الفكرة ولعل أهمها:

- إقناع كبار شخصيات الحجاز، أبناء الصحابة. فكان عليه أن يحظى بتأييد الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، بالإضافة إلى بعض الشخصيات الأموية الذين كانوا يتطلعون إلى خلافة أمثال مروان بن الحكم وسعيد بن العاص.

- تهيئة يزيد لتحمل المسؤولية

قلب نظام الشورى، وجعل الحكم وراثياً

أما فيما يتعلق بإقناع كبار شخصيات الحجاز، فقد كتب معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة، ليستشير الناس في أمر اختيار خلف له، دون أن يسمي يزيد ولما جاءه الجواب بالموافقة، كتب إلى مروان ليخبر الناس باختيار يزيد، كما كتب إلى عماله يأمرهم بمدحه وتقريظه، وبإرسال الوفود إليه من الأمصار، فأقبلت الوفود من العراق وسائر بلاد الشام بتأييده، وسرعان ما تبين أن المدينة ستكون أكثر المدن الإسلامية معارضة لهذه البيعة حيث برز تيار معارض بزعمارة عبد الرحمن بن أبي بكر، وحجته في ذلك أن معاوية يكون قد خرج عن سياسة أسلافه وجعل الخلافة وراثية، وأنكر الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر هذا التدبير. فكتب مروان بذلك إلى معاوية، وتوافق هؤلاء الأربعة أنه إذا كانت الخلافة وراثية فإن حقهم فيها أكثر من حق يزيد، أما إذا كانت بالاختيار لأفضل المرشحين فإن يزيد يغدو بعيداً عن كل حق فيها لعدم وجود أي من الصفات المطلوبة فيه .

لكن بيعة الحجازيين كانت ضرورية، لأن الحجاز مهد الإسلام ويعيش فيه الصحابة وأبناؤهم، لذلك كان لا بد لمعاوية من الإقدام على عمل ما لتأمين هذه البيعة، فرأى أن يستعمل اللين أولاً مع المعارضين، فقدم بنفسه إلى المدينة في عام (٥٥٠هـ/٦٧٠م) واجتمع بالعبادة أبناء الصحابة، وهم: عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير، وأبدى أمامهم رغبته في أخذ البيعة لابنه يزيد فعارضوه، وفشل في استمالتهم. ويبدو أنه قرر أن يتجاوزهم، فعاد إلى دمشق وأخذ يعدُّ العدة للحظة الحاسمة دون الالتفات إلى رأي المعارضين، خاصة وأن أهل الشام والعراق بايعوا يزيد.

وبدا لمعاوية أن يحاول مرة أخرى قبل الإقدام على تنفيذ البيعة لابنه واستخدام عامله على المدينة سعيد بن العاص وسائل العنف والغلظة لحمل المعارضين على ذلك، فأبطأوا عنها إلا اليسير منهم لاسيما بنو هاشم.

وفي عام (٥٦هـ/٦٧٦م) أعلن معاوية رسمياً البيعة لابنه يزيد، وجرت احتفالات التنصيب في دمشق وكان الحجاز وحده غائباً عن المشاركة فيها. وخشي معاوية من تطور المعارضة إلى عصيان، فتوجه إلى المدينة ليضمن عن طريق شخصيته ومكانته، تحقيق النجاح في كسب تأييد أهلها وإرغام المعارضين على قبول البيعة ليزيد.

وما كاد يصل إلى المدينة حتى غادرها المعارضون إلى مكة، وبايع من بقي فيها ليزيد. وقرر معاوية أن يجد السير في طلب المعارضين، وقد بلغ به الغضب أشده. وفي المسجد حيث اجتمع بهم، دافع ابن الزبير باسم رفاقه عن موقفهم الرفض، وجرى حوار فاشل، عندئذٍ أدرك أنه لا بد من اللجوء إلى التهديد بالعقاب بعد أن فشلت وسائل الإقناع. واستطاع بالحنكة والشدة حمل المعارضين على الاعتراف بولاية العهد ليزيد، باستثناء الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير.

أما الشخصيات الأموية التي كانت تتطلع نحو الخلافة، فلم تُثر أية مشاكل جدية في وجه معاوية، بفعل سياسته التي اتبعتها تجاه هذه الشخصيات القائمة على التفرقة والإيقاع بينها، خاصة بين مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، واستطاع عن طريق شخصيته وأسلوبه السياسي تجاوزها، واقتنع، المعارضون أخيراً، أن الأحداث قد تجاوزتهم فمالوا إلى المهادنة.

أما فيما يتعلق بتهيئة يزيد لتحمل المسؤولية، فقد أُرِدْفه على رأس قوة عسكرية إلى بلاد البيزنطيين لمساندة الجيش الإسلامي الذي كان يحاصر القسطنطينية آنذاك بقيادة سفيان بن عوف، وحشد معه عدداً من كبار الشخصيات الإسلامية أمثال: ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم. وقد هدف معاوية أن يظهر ابنه أمام المسلمين بمظهر المجاهد، مما يساعده على تأهيله لمنصب الخلافة، ويمحو من ذاكرتهم ما عُرف عنه من تهاون، فيحرز بذلك كسباً أدبياً يرفع من شأنه. أما فيما يتعلق بمبدأ تحويل نظام الحكم، فقد كان على معاوية إقناع الناس بقبول مبدأ الحكم الوراثي وتعيين ابنه يزيد. فهو يمتلك القدرة على تنفيذ ما يريد، وتوظيف ثقله السياسي في إقناع المعارضين، وقد نجح في ذلك، ومهما يكن من أمر، فقد خالف معاوية شروط الخلافة، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية.

ويبدو أن نظام الشورى، الذي طبقه الخلفاء الراشدون من قبل، لم يعد نظاماً صالحاً، بعد أن اتسعت رقعة الدولة، وتطورت أجهزتها الإدارية، وانقضت جيل الصحابة، ويلائم هذا النظام البيئات القبلية والبيئية الراشدية بما كانت لها من مقومات خاصة لقرب عهد الخلفاء الراشدين من عهد الرسالة، وإن كان قد أثبت عدم صلاحيته في عهد عثمان بفعل ما نشب من خلافات بين المسلمين تحولت إلى ثورات خطيرة ترتبت عليها أحداث مفعجة، مما دفع معاوية إلى حصر الخلافة في بيت معين مع الاحتفاظ بمظهر البيعة.

سياسة معاوية الخارجية :

وضع معاوية أسساً مدروسة وقواعد ثابتة في سياسته الخارجية، ولكن عهده لم يشهد فتوحات على نطاق واسع، كما كان الحال في عهد الخلفاء الراشدين إنما هذا لم يكن تقصيراً منه بل حسن تقدير للأمور، وإذ أدرك جسامه المهمة الملقاة على عاتقه في حقل السياسة الخارجية التي تتمثل في تثبيت الفتوحات في المشرق والقضاء على الحركات التمردية، التي كانت تقوم بين الحين والآخر في أنحاء متفرقة من البلاد، نتيجة الشعور القومي لدى الفرس، ومن ناحية ثانية، كان معاوية يعمل جاهداً على نشر الدين الإسلامي بين الشعب الفارسي. ومن أجل ذلك أسكن عشرات الآلاف من الأسر العربية في المناطق الفارسية، وبصفة خاصة في خراسان حتى يكون اختلاط العرب بالفرس سبيلاً إلى نشر التعاليم الإسلامية واللغة والثقافة العربية. ومع هذا، لم يغفل حراسة الحدود، فكانت الغزوات تنطلق من ثغر السند إلى حدود بلاد ما وراء النهر، وهكذا قدر معاوية أن تثبت الفتوحات ونشر الإسلام في البلاد الشرقية أجدب من الفتح والتوسع وقد نجحت هذه السياسة في هذا الجناح الشرقي من الدولة الإسلامية.

أما الجناح الغربي، وأعني بلاد الشام ومصر، فكانت المواجهة مع الدولة البيزنطية لا بد منها لسببين: الأول قرب الدولة البيزنطية من مركز القيادة في دمشق. الثاني أن خطر الدولة البيزنطية ظل قائماً، وتهديدها للدولة الإسلامية كان لا يزال مستمراً. وقد وقف معاوية من خلال خبرته السياسية، أثناء توليه بلاد الشام، على أهداف البيزنطيين القاضية بطرد المسلمين من هذا البلد فركز معظم جهوده للتصدي لهم، وإيقافهم عند حدهم، خاصة في ميدان البحر، والبع في سبيل ذلك استراتيجية عسكرية خاصة.

أ- الجبهة الشرقية :

الواقع أنه ما كادت الفتن تهدأ ويستتب الأمر لمعاوية حتى استأنف حركة الفتوح. وامتازت السنوات التي قضاها في الخلافة بالنشاط الحربي الواسع، تجلّى على الجبهة البيزنطية، وجبهة شمالي أفريقيا بشكل خاص. أما الشرق، فلم يعرف سوى فتوحات هامشية لا تذكر، إذ اقتصر معظم الاشتباكات على إعادة إخضاع أهالي البلاد الثائرة. كان المسلمون قد وصلوا إلى كرش في أيام خلافة عثمان ولكن حكمهم في تلك المنطقة كان مزعزجاً إلا أنهم عادوا إلى التقدم شرقاً في أيام معاوية، فغزا عبد الله بن سوار العبدي وكان أميراً على ثغر السند القيقان وهي بلاد السند مما يلي خراسان حيث قتل، في حين وصل المهلب بن أبي صفرة في غزواته إلى لاهور، وأخضع قيس بن الهيثم بادغيس وهراة وبلخ بعد أن نقض سكانها الصلح مع المسلمين (وفي عهد زياد بن أبيه، واصل المسلمون تقدمهم فوصلوا إلى كابل وفتحوها بعد حصار، في حين عبر ابنه عبيد الله نهر سيحون على رأس قوة عسكرية ووصل إلى بيكندفاستعانت ملكة تلك البلاد بالترك للتصدي لزحف المسلمين إلا أنهم انهزموا، فاضطرت الملكة خاتون إلى طلب الصلح

فصالحها عبيد الله لقاء دفع الجزية، ثم حدث أن ولي معاوية سعيد بن عثمان بن عفان إمارة خراسان فاستغلت الخاتون فرصة تغيير الحكام ونقضت الصلح وتحالفت جموع من أهل السعد والترك وكش ونسف وتصدوا للمسلمين، والتقى الفريقان ببخارى في رحى معركة كبيرة أسفرت عن انتصار واضح للمسلمين، ودخل سعيد على أثرها مدينة بخارو وأخسمرقاند وفتح ترمذ).

ب- الجبهة البيزنطية:

شهدت العلاقات الإسلامية البيزنطية، ابتداء من منتصف القرن الأول الهجري سلسلة من الأحداث الهامة أثرت في العالمين الإسلامي والبيزنطي وجعلت الصراع العسكري بينهما سجلاً متأرجحاً بين النصر والهزيمة والسلم والحرب وفقاً لمقتضيات الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل منهما الفضل للخلافة الأموية عامة، ولمعاوية خاصة، في وضع سياسة عسكرية واضحة الأهداف والمعالم ضد الدولة البيزنطية، وتنظيم الحملات لمهاجمة القسطنطينية والحقيقة أن معركة ذات الصواري " حولت العلاقات العسكرية بين المسلمين والبيزنطيين نحو اتجاه جديد في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، إذ إنها اعتبرت المدخل الذي أطل منه الأمويون على العالم الوسيط كقوة بحرية منافسة في المنطقة. كما أنها أضاعت آخر الفرص من البيزنطيين لاستعادة مواقعهم في الشام ومصر، حيث كان اعتمادهم على التفوق البحري لكن انحسار الدولة البيزنطية وانكفاءها إلى ما وراء حدودها في آسيا الصغرى، لم يدفعها إلى التخلي نهائياً عن هذه المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية، لوجودها واستمرارها كدولة كبرى.

لذلك لم يفت على معاوية هدف البيزنطيين، كما لم يتجاهل الفراغ العسكري الذي أحدثته في المنطقة، فوضع نصب عينيه هدفين : أولهما: إقامة نظام ثابت لحماية المناطق الحدودية والشواطئ الإسلامية من هجمات البيزنطيين وحلفائهم المردة ثانيهما: الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.

تمثلت أبرز خطوط هذا النظام الحربي في إقامة مراكز دفاعية في مناطق الحدود، وحاميات عسكرية دائمة في المعازل الأمامية، والممرات الجبلية على تخوم الدولة البيزنطية، وهي التي عرفت باسم (الثغور). إنها مواقع عسكرية متقدمة ملاصقة لحدود العد، ورأى معاوية ضرورة الاهتمام بهذه المناطق الحدودية وتعميرها وتحصينها، فاهتم بمدينة أنطاكية التي كانت معرضة باستمرار للغارات البيزنطية المفاجئة، فأغرى الناس على الإقامة فيها بأن منحهم إقطاعات من الأرض كما نقل إليها في عام (٤٢ هـ / ٦٦٢ م) جماعة من الفرس وجماعات من أهل بعلبك وحمص والبصرة والكوفة ، ثم أخذ يوالي تدريجياً تعمير المدن الواقعة بين الإسكندرونة وطرسوس. كما نفذ خطة إعادة استيطان المدن التي خرج منها البيزنطيون بعد الفتوحات الإسلامية. فبالإضافة إلى أنطاكية وحمص نقل قوماً من فرس بعلبك وحمص إلى صور،

كما نقل قوماً من زط البصرة، والسيابجة إلى السواحل، وأنزل بعضهم أنطاكية وحتى يقوي معاقل الحدود فتح سميساط وملطية وجدد حصوناً أخرى مثل مرعش والحدث وفتح حصن زيطرة الاستراتيجي وأعاد تحصينه، وأبدى نشاطاً ملحوظاً في ترميم المدن الساحلية وتحصينها لتقوى على صد غارات البيزنطيين من البحر فرقم عكا وصور وحضن جبلة وشحنها بالمرابطة ومصر الطرطوس فيناها وأقطع بها القطاع وارتبط بهذا النظام الدفاعي نظام آخر ذو خصائص هجومية دفاعية مشتركة وهو ما عرف بالشواتي والصوائف إنها حملات دورية منتظمة كانت تتوجه إلى الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى ويشرف عليها قادة اختصاصيون) هدفها السيطرة على الحصون والمعاقل الجبلية المهمة والقيام بغارات داخل الأراضي البيزنطية والتصدي للبيزنطيين إذا ما حاولوا التقدم داخل الأراضي الإسلامية .

ونظراً لأن المعارك والصراعات العسكرية التي كانت تحدث بينه وبين البيزنطيين بمجملها بحرية أدرك معاوية أهمية تعزيز الأسطول البحري ففي: الدفاع عن السواحل .

- غزو الجزر البحرية المواجهة لساحل الشام مثل أرواد وقبرص ورودس ليتخذها مراكز أمامية لتوجيه الغزوات البحرية منها إلى بلاد البيزنطيين. الدفاع عن البلاد المفتوحة والأماكن المكتسبة.

- استمرار العلاقات التجارية الخارجية مع بلاد البحر الأبيض المتوسط خاصة وأن هذا البحر كان لا يزال في قبضة البيزنطيين لذلك وضع مخططاً للتفوق على هؤلاء في البحر وإبعادهم عن السواحل.

وتتفيداً لهذا المخطط بنى معاوية البحرية الإسلامية، وأنشأ أسطولاً بحرياً، عهد بإدارته إلى عدد من الملاحين العرب من بني الأزدي الغساسنة)، ويفضل هذا الأسطول، تمكن المسلمون من إحكام سيطرتهم على سواحل بلاد الشام، وتنفيذ خطة السيطرة على الجزر، وبذلك يكون معاوية أول من نظم أسطولاً بحرياً، وأول من أرسل حملة إسلامية للغزو في البحر المتوسط غزا المسلمون بقيادة معاوية جزيرة قبرص في عام (٢٨هـ/٦٤٩م) واستولوا عليها. وكان النصر الذي لازم هذه الحملة بداية مرحلة من النشاط البحري للمسلمين الذين قاموا خلال السنوات التالية بسلسلة من الغارات البحرية من قواعدهم في بلاد الشام ومصر تمهيداً لحصار القسطنطينية، وقد رافقت هذه الحملات البحرية، حملات أخرى برية بهدف دراسة الطرق المؤدية إليها.

وأرسل معاوية في عام (٤٩هـ/٦٦٩م) حملة عسكرية برية ضخمة لحصار القسطنطينية بقيادة فضالة بن عبيد الله الأنصاري الذي توغل في عمق الأراضي البيزنطية، حتى وصل إلى خلقدونية القريبة من العاصمة. وقد أمضى فضالة شتاء ذلك العام في أملاك الإمبراطورية وكان معاوية يمدّه بالإمدادات والمؤن. وقد قامت إحدى / ٢٢٥ المهمة، وأهمية الحملة أُرِدَف معاوية القوات الإسلامية بابنه يزيد على

رأس قوة إضافية، مما أنعش آمال المسلمين بمواصلة الحصار واصطدم الفريقان الإسلامي والبيزنطي في معارك التحامية تحت أسوار العاصمة، إلا أن المسلمين لم يحرزوا انتصارات حاسمة، وبالتالي لم يتمكنوا من فتحها، ولعل مرد ذلك إلى : متانة أسوارها، ومنعة قوتها بقيادة سفيان بن عوف بتنفيذ الحصار على العاصمة البيزنطية نقاد المونبعد طريق الإمدادات .

وأخيراً اضطر المسلمون إلى فك الحصار والعودة إلى الشام. وتوفي في هذه الغزوة الصحابي أبو أيوب الأنصاري الذي رافق جيش يزيد، ودفن عند أسوار القسطنطينية والحقيقة، أن هذه الحملة، بالرغم من فشلها من الناحية العسكرية، إلا أنها تعتبر ناجحة من الناحية السياسية، حيث جعلت الأباطرة البيزنطيين يخططون لاتخاذ وسائل أكثر نجاعة للدفاع عن عاصمتهم ضد هجمات المسلمين. فأحدثوا تغييرات في النظم العسكرية والإدارية في الإمبراطورية بشكل عام وفي إقليم آسيا الصغرى بشكل خاص الذي اعتبره خط الدفاع الأول عن العاصمة .

لم يكن فشل الحملة معاوية عن المضي قدماً في محاولاته لفتح القسطنطينية وأدرك، في الوقت نفسه، أهمية السيطرة على الجزر القريبة منها كعامل مساعد. فبعد جزيرتي قبرص وكوس، فتح المسلمون جزيرة رودس في عام (٥٢هـ / ٦٧٢ م) كما فتح أسطول إسلامي جزيرة خيوس، وسيطر المسلمون على أزميروليكيكي يكون معاوية قد أحكم الطوق البحري على العاصمة البيزنطية .

وفي عام ٥٤هـ / ٦٧٤م بدأ الحصار الثاني للقسطنطينية واستدعى الأمر تعزيز القوة البحرية في مياهها، فانضم إليها أسطول إسلامي آخر بقيادة جنادة بن أبي أمية بعد أن فتح جزيرة أرواد القريبة منها حيث اتخذها المسلمون قاعدة انطلاق، وتخلل الحصار مناوشات بين الأسطولين الإسلامي والبيزنطي، في حين تراشقت القوات البرية الإسلامية المرابطة حول العاصمة، مع الجنود البيزنطيين المرابطين على أسوارها، بالقذائف والسهام)،

استمر هذا الوضع طيلة سبعة أعوام حتى عام (٦٠هـ / ٦٨٠ م) اقتصرتاالعمليات العسكرية على فترتي الربيع والصيف لصعوبة القتال في الشتاء وصمدت المدينة أمام الحصار، فلم يحرز المسلمون انتصارات حاسمة بفعل أن جهودهم تركزت على محاصرة المدينة من جهة البحر، أما الحصار البري فكان مزعزماً حيث ظلت الطرق البرية وطريق البحر الأسود مفتوحة أمام البيزنطيين مما جعل منها متنفساً وطريقاً للإمدادات والمؤن، وهذا خطأ استراتيجي ترتبت عليه عدة نتائج بالغة الأهمية، إذ توقف زحف المسلمين إلى أوروبا من جهة الشرق بالإضافة إلى أنه عزز مركز الإمبراطورية البيزنطية.

والواقع أنه تضافرت عدة عوامل جعلت المسلمين يفكرون الحصار عنالقسطنطينية لعل أبرزها : مناعة أسوار المدينة، رداءة الطقس وقسوته، التيارات المائية الشديدة الانحدار التي كانت تبعد السفن عن الأسوار، عدم إحكام الحصار البري ، استعمال النار الإغريقية من قبل البيزنطيين.

عوامل داخلية تتعلق بكل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية :

ففيما يتعلق بالدولة الإسلامية، نرى أن معاوية وجد نفسه بحاجة إلى هدنة طويلة مع البيزنطيين، بعد أن أدرك أن مدة الحصار قد طالّت دون أن يتحقق الهدف، ورأى، بعد أن أحس بدنو أجله، أن من مصلحة المسلمين أن يعود هذا الجيش الضخم المرابط حول العاصمة البيزنطية إلى دمشق تحسباً لأية مشاكل قد تواجه الدولة الأموية بعد وفاته، أما فيما يتعلق بالبيزنطيين، فقد كانت الدولة البيزنطية تواقّة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها بعد أن أرهاقها وأنهك قواها، ونتيجة للمفاوضات التي جرت بين الطرفين تم الاتفاق على ما يلي: يدفع معاوية جزية سنوية للبيزنطيين مقدارها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية، بالإضافة إلى خمسين أسيراً، وخمسين حصاناً، تستمر الهدنة ثلاثين عاماً .

ج- جبهة شمالي أفريقيا :

قبل أن نتحدث عن فتوح المسلمين لشمالي أفريقيا لا بد لنا من تحديد المناطق الجغرافية التي حدثت فيها الأحداث، وهي تنقسم إلى أربعة أقسام :

١ - برقة وطرابلس .

٢ - إقليم أفريقيا : يقابل تقريباً تونس الحالية، ويعرف بالمغرب الأدنى. المغرب الأوسط : يقابل ما يعرف اليوم بالجزائر.

٣- المغرب الأقصى : يقابل ما يعرف اليوم بالمملكة المغربية .

مرت فتوح شمالي أفريقيا بسبع مراحل استكملت خلالها عملية الفتح وانتهت في أيام الوليد بن عبد الملك.

تعد المرحلة الأولى من فتوح المسلمين لشمالي أفريقيا، وهي فتح برقة، استكمالاً لفتح مصر، وقد تمت على يد عمرو بن العاص في عام (٢٢هـ/٦٤٣ م) كما فتح عمر و طرابلس الغرب وصبرانا وأتم فتح فزان . وجاءت الخطوة التالية على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح في عام (٢٧هـ/ ٦٤٨ م)، ففتح سببلة وبث جنوده في البلاد فبلغ قفصة وفتح حصن الأجم، جنوبي القيروان .ويبدو أنه اكتفى بهذه الفتوح القليلة، فعاد إلى مصر دون أن يترك أثراً يذكر، إلا أن غزواته التي تمت على هذا النحو ، كانت تجربة مفيدة للمسلمين، إذ أوقفتم علحالة هذه البلاد وعلى مدى أهميتها إليهم، وشغل المسلمون، بعد

ذلك بمشاكلهم الداخلية، فتوقفت حركة الفتوح، مؤقتاً. وعندما استقر الأمر لمعاوية استأنف النشاط الجهادي، فأرسل، في عام (٤٥٠هـ/٦٦٥م)، حملة بقيادة معاوية بن حديج السكوني، وأمره القيام بغارات على المنطقة الواقعة غربي طرابلس وانتهى هذا القائد إلى سهل قمونية إلى الجنوب من قرطاجنة في هذه الأثناء، أقام القائد البيزنطي نقفور معسكره في مدينة سوسة الساحلية، مما جعل أمر الصدام بين الطرفين حتمياً. وفعلاً دارت بينهما مناوشات طفيفة انسحب على أثرها نقفور من المنطقة، في حين لم يستثمر ابن حديج انتصاره بتركيز أقدام المسلمين فيها بالرغم من أنه فتح سوسة وجلولاء وبنزرت وجزيرة جربة ويبدو أن معاوية أراد إعطاء حركة الفتوح دفعاً تصعيدياً، وقد تمثل ذلك بفصل برقة وطرابلس الغرب من مصر في عام (٤٩٠هـ/٦٦٩م) على الأرجح، وولى عليها عقبة بن نافع الذي سطر التاريخ أعماله الباهرة وبتولية عقبة، تبدأ المرحلة الثانية من مراحل فتوح شمالي أفريقيا، وهي مرحلة مهمة لأن هذا القائد سينفذ استراتيجية جديدة سوف تؤمن الاستقرار للمسلمين في المنطقة، ليصبح المغرب جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي .

بدأ عقبة نشاطه بفتح عدد من المواقع الاستراتيجية في المغرب الأدنى منفذاً خطة محكمة تقضي بتشكيل حاميات عسكرية في المدن والمواقع، التي يتم فتحها بهدف الاحتفاظ بمكتسبات الفتح، مثل ودان وفزان وخاور ووغدام وأدرك من خلال تجربته السابقة، أن أهل شمالي أفريقيا يدخلون في طاعة المسلمين طالما بقي هؤلاء في بلادهم، فإذا ما انصرفوا عنهم ارتدوا عن الإسلام وشقوا عصا الطاعة، وكانت برقة وزويلة قاعدتا الفتح الإسلامي لشمالي أفريقيا منتظر فتين مما يساعد أهل المغرب على الخروج على المسلمين في كل مرة ينتهون فيها من غزوهما لها، فرأى أن ينشئ قاعدة إسلامية في شمالي أفريقيا تكون مركزاً لحكم إقليمي ثابت الدعائم، منها تخرج الجيوش الإسلامية للفتح والاستقرار في المناطق المجاورة، فضلاً عن تأمين الخطوط الدفاعية الضرورية للمسلمين في هذه المنطقة، بالإضافة إلى هدف عقائدي في أن تكون منطلق الدعوة التبشيرية بين البربر سكان شمالي أفريقيا الأصليين. فاخطت القيروان في عام (٥٠٠هـ/٦٧٠م) في منطقة صحراوية تقع إلى الجنوب من قرطاجنة ويتميز موقعها الجغرافي بأنه يقبض على التعرض لغزوات البيزنطيين البحرية، ويتوافر فيها طيب المراعي، وجاء تأسيسها دليلاً على الإصرار على مواصلة الفتح، وقامت هذه المدينة بدور كبير في فتح شمالي أفريقيا كلها، والانطلاق إلى الأندلس، بالإضافة إلى نشر الدين الإسلامي في المغرب، وأضحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية، ويبدو أن سياسة عقبة التي انتهجها مع البربر قد اتسمت بالعنف، مما جعل الأمن متعذباً، وأدى بهؤلاء إلى التحالف مع البيزنطيين.

وقد أدرك معاوية خطر هذه السياسة، فعزل عقبة في عام (٥٥٠هـ/٦٧٥م) وولى مكانه أبا المهاجر دينار الأنصاري والراجح أن حادثة العزل تدور في نطاق العلاقات الشخصية بين القادة والولاة والخلافة .

وبعزل عقبة، وتعيين أبي المهاجر تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا، وقد اتسمت بمنهجية أكثر اعتدالاً في التعامل مع البربر مما مهد الطريق لتغلغل الدين الإسلامي بين السكان وأدرك أبو المهاجر الدور البيزنطي في تأليب البربر ضد المسلمين، فقرر أن يضع حداً لهذا الدور، وتتضح هذه السياسة عندما نلاحظ أن حملاته توجهت كلها ضد الوجود البيزنطي في منطقة الساحل، خاصة عاصمتهم قرطاجنة، فهاجمها وأجبر أهلها على طلب الصلح، وفتح جزيرة شريك الاستراتيجية القريبة منها، واتخذها قاعدة عسكرية ليراقب تحركات البيزنطيين، وبذلك حقق أول نصر عسكري وسياسي عليهم تتوسط المغربيين الأدنى والأوسط، واستقر بها، ومنها أخذ يبث الدعوة الدينية بين البربر في المغرب الأدنى الذين قبلوها ودخلوا في الإسلام. وبعد أن اطمأن أبو المهاجر على أوضاع المغرب الأدنى، استأنف حركة الجهاد لفتح المغرب الأوسط، وقد جمعت البربر والبيزنطيين في هذا الإقليم مصلحة مشتركة تتمثل بوقف التقدم الإسلامي، ثم طرد المسلمين من المغرب الأدنى.

ثم حدث أن تابع أبو المهاجر حملاته ضد الوجود البيزنطي، ففتح ميلة التي كانت قبيلة أوروبا البربرية تنتزع المغربيين الأوسط والأقصى بقيادة زعيمها كسيلة بن لمزم الذي أدرك مدى ما يشكله المسلمون على وطنه ودينه النصراني من خطر، لذلك قام ليواجههم بشراسة ولدرء هذا الخطر الداهم جمع كسيلة جيشاً كثيفاً، وعسكر في تلمسان بانتظار الصدام المرتقب مع أبي المهاجر. وفعلاً التقى الجمعان ودارت بينهما رحى معركة عنيفة اعتبرها كل طرف معركة مصير انتهت بانتصار المسلمين، وتمزق جيش كسيلة وتشتت في الصحراء وأسر كسيلة فعمل إلى أبي المهاجر الذي عامله معاملة طيبة حيث طمع في إسلامه لأنه لو أسلم فسيكون إسلامه سيباً في إسلام قومه بفضل مكانته الكبيرة بينهم وفعلاً دخل كسيلة وقومه في الإسلام واستخدمهم أبو المهاجر في فتح للسان .

وعاد أبو المهاجر إلى القيروان بعد أن اطمأن إلى أوضاع المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر، حيث راح يراقب تحركات البيزنطيين ونشاطهم، ويعمل على إزالة نفوذهم في الشمال. لكن لم يطل به المقام، فقد توفي مولاء مسلمة بن مخلد، والي مصر، في عام (٦٦٢هـ / ٦٨٢م) وكان سنداً قوياً له، فأعاد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع إلى أفريقيا للمرة الثانية، وعزل أبا المهاجر. فابتدأت بذلك مرحلة أخرى من مراحل فتوح شمال أفريقيا هي المرحلة الرابعة.

سياسة معاوية الإدارية :

عرف عن خلفاء بني أمية، خاصة الكبار منهم مثل معاوية بن أبي سفيان وعيد الملك بن مروان، حرصهم على حسن إدارة دولتهم والسهر على مصالح الرعية لينتظم لهم أمر الملك، فلم يدخروا وسعاً في اقتباس الأساليب الإدارية النافعة لتطبيقها في دولتهم وإنشاء الدواوين والأجهزة الإدارية مرافق الدولة .

شهدت الإدارة أو ما عُرف بالدواوين، في عهد معاوية تطويراً ملازماً مع التغيير الذي طرأ على نظام الحكم، وخطت خطوات سريعة إلى الأمام بفعل انفتاحه الشديد على حضارات الروم والفرس ، ذلك أنه تابع ما بدأه عمر بن الخطاب في نطاق الإدارة، ولكن دون أن يستكمل الشكل النهائي لها وقد استعان معاوية بأشخاص من النصارى ممن عملوا في الإدارة البيزنطية أمثال سرجون بن منصور وابنه منصور بن سرجون، بإدارة ديوان المال .

والواقع أن جهود معاوية انطلقت من مؤسستين، ديوان الخاتم وديوان البريد، في الوقت الذي عرف فيه المسلمون ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل .

أنشأ معاوية ديوان الخاتم حتى لا تخرج التوقيعات بدون ختم فلا يعلم ما تحويه من أسرار غير الخليفة، ولا تتعرض للتزوير والتعديل، بالإضافة إلى أن هذا الديوان كان يستقبل التقارير التي ترفع إلى الخليفة من الولاة، كما أنشأ معاوية ديواناً للبريد، حين اتسع نطاق الدولة، وأضحى من الضروري نقل الرسائل بسرعة متناهية لتسهيل الاتصال السريع بين الخليفة وبين عمال الأقاليم . وكان لهذا الديوان مهمتان الأولى : نقل الرسائل من دار الخلافة وإليها، والثانية : أن موظفي هذا الديوان كانوا عيوناً للخليفة يراقبون الولاة والعمال في أعمالهم ومسلكهم ويرفعون إليه تقارير بكل ما يصل إلى علمهم من ذلك حتى يكون الخليفة على علم بأحوال الولايات وما يحدث فيها وقد بذل معاوية نفقات باهظة في تطوير هذا الديوان وتنشيطه من خلال تزويده بعدد من الموظفين والخيول والمحطات المجهزة بما يحتاج إليه ناقل الخير . وأضحى في إدارة شؤون الدولة والجدير بالذكر أن البريد كان محصوراً في نقل المعاملات الرسمية، والتقارير الصادرة عن الدولة فقط . وفاة معاوية لما مرض معاوية مرض الموت كان ابنه يزيد غائباً عن دمشق . فاستدعى الضحاک بن قيس ومسلم بن عقبة وأدى إليهما وصيته إلى يزيد ثم توفي في (شهر رجب عام ٦٠هـ / نيسان عام ٦٨٠م) وكانت أشد الهواجس التي تتنابه وتؤرقه مبعثها أربعة من الزعماء هم عبد الله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر .

يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٦٣هـ / ٦٨٠ - ٦٨٣م)

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، أمير المؤمنين أبو خالد الأموي ولد عام سنة وعشرون للهجرة أثناء ولاية والده على بلاد الشام في خلافة عثمان . وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية تزوجها معاوية قبل أن يلي الخلافة .

نشأ يزيد في البادية في كتف أمه التي تركت زوجها لأنها لم تحتل الحياة في دمشق، فشب فصيحاً وشاعراً حتى قالوا ابتدئ الشعر بملك وتختم بملك، إشارة إلى امرئ القيس وإليه حرص معاوية على تعليم ابنه التواضع والعدل ومكارم الأخلاق، وفن التعامل مع الناس، حتى يتحجب إليهم وتتوثق الصلات بينه وبينهم، وعندما آلت إليه الخلافة أخذ بالحزم، وحرص على أن يعهد إليه ببعض الأعمال الكبيرة لتدريبه على العمل وإكسابه الجدية، وتعريف المسلمين، به وتهيئته للمنصب الذي كان بعده له، وهو منصب الخلافة فقد أعزاء الروم، فأسند إليه قيادة الجيش الريف الذي أرسله لفتح القسطنطينية في عام (٤٩هـ/ ٦٦٩م) كما أثره على الحج. وعندما قرر أن يعهد إليه بالخلافة أخذ يحمله على حياة الجد والحزم، وراح يعظه برفق لترك حياة الترفوالنعومة ليؤهل نفسه للمنصب الذي ينتظره)، وحدد له السياسة الواجب تنفيذها في كيفية حكم الدولة وإدارتها، ومعاملة الناس لقد حاول يزيد تنفيذ فحوى وصية والده عندما تسلم الحكم، وهي تعتبر من أهم الوثائق في فن الحكم والسياسة والإدارة والتعامل مع الناس. وعندما مات معاوية، بايع الناس يزيد بالخلافة، في حين تخلف عن البيعة من أهل الحجاز كل من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير اللذين التجأ إلى مكة .

وهكذا تسلم يزيد الخلافة في دولة واسعة الأرجاء، غنية، ومعقدة السياسة، لم يبذل جهداً في تشييدها. وقد أقبل على الملك دون أن ينصرف نهائياً عن لذاته، واثقاً بأن الأمور ستجري وفق مشيئته، وكان يرى أن طاعته حق على الناس جميعاً، فمن عصى فليس له عنده إلا السيف.

الأحداث السياسية الداخلية في عهد يزيد

أ - مأساة كربلاء :

واجهت يزيد خلال مدة حكمه ثلاث قضايا على جانب كبير من الخطورة. تمثلت الأولى بخروج الحسين بن علي إلى الكوفة تلبية لدعوة أهلها ليقودهم ضد الحكم الأموي، في حين تمثلت الثانية بخروج أهل المدينة على حكمه، وتمثلت الثالثة بقيام ابن الزبير في مكة .

الواقع أن استلام يزيد بن معاوية للخلافة شكل صدمة عنيفة لأهل العراق الذين عانوا من وطأة الشدة في أيام معاوية، ثم بلغهم رفض الحسين بيعته يزيد، والتجاؤه إلى مكة؛ وشجعهم تغاضي الوالي الأموي في الكوفة، وهو النعمان بن بشير، فتنادوا إلى تشكيل جبهة معارضة .

واجتمعت الفئات المؤيدة للاتجاه العلوي في منزل سليمان بن صرد الخزاعي، في وقت بدت فيه الكوفة وكأنها بدون سلطة والفقوا على أن يكتبوا للحسين يستقدمونه لبياعوه، وقد حددوا موقفهم السياسي وهو خلع يزيد ورفض الاعتراف بالنظام الوراثي الذي أضحى أمراً واقعاً بعد إعلان خلافته، ولتحقيق هذه الغاية

ورد عليه أول كتاب من قبل سليمان بن صرد وجماعة من شيعة الكوفة، فيه شرح لما آلت إليه الأوضاع السياسية داخل المدينة، وأبدى سليمان استعداده للاستيلاء على السلطة في حال قبوله بالقدوم إليهم واستخدم في كتابه مصطلحات مثل الإمامة والخلافة والمهدية، وهذا يدل على أن تطوراً عقدياً مهماً طرأ على المجتمع الكوفي، وبالتالي على حركة الشيعة كذهب (وورد عليه في اليوم التالي، رسولان يحملان خمسين كتاباً من أشرف أهالكوفة، ثم تتابعت الرسل بالوفود إلى مكة تدعوه للمضي إلى الكوفة، وتولي القيادة في العراق، وقد تضمنت الاقتراح عليه الخروج على حكم يزيد) وشعر الحسين بالتردد، في بادئ الأمر، فقد ظل بعيداً عن السياسة منذ مقتل والده إلا أنه حمل في طيات نفسه شعوراً بأحقية بالخلافة، لكن الرسائل استمرت في الوصول إليه من الكوفة تحثه على وجوب التحرك السريع، وتعدده بالمؤازرة العسكرية، حتى منحها أخيراً كثيراً من عنايته .

اعتكف الحسين في منزله وانكب على دراسة القرار الصعب الذي لا بد من اتخاذه، فالبقاء في مكة لم يكن غير تدبير مؤقت لأن الأمويين أن يدعوه في مأمن حتى يبائع يزيد وإذا كان الاختيار أضحى أمراً لا مجال للبحث فيه، فإن استكمال دراسة الموقف في العراق كان ضرورياً قبل الموافقة النهائية انطلاقاً من هذا الشعور مالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة، لكنه أثر أن يستقصي أمر هؤلاء الناس فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليتحقق بنفسه من صدق مشاعرهم، وليقف على حقيقة الأمر، فإن آنس منهم نية صادقة وعزيمة على الخروج وإخلاصاً لآل علي أخذ منهم البيعة سراً، حتى إذا رأى أن قد بايعه منهم من يستطيع أن ينهض بهم إلى ما يريد من خلع يزيد، كتب إليه بذلك ليرحل إلى الكوفة . ثم رد على أهل الكوفة بكتاب واحد دفعه إلى رسولين منهم يخبرهم فيه بنيته توجه مسلم بن عقيل إلى الكوفة، واستقبل حين وصوله إليها، في (الخامس من شهر شوال عام ٦٠هـ/ شهر تموز عام ٦٨٠ م) استقبلاً حماسياً من شيعة بني هاشم، وأقسم بين يديه منهم اثنا عشر ألفاً وقيل ثمانية عشر ألفاً إخلاصاً للحسين وشجعه على المضي في مهمته تغافل والي الكوفة النعمان بن بشير عنه، وعدم التعرض له، حتى إذا استوثق من أهل الكوفة، جعل يأخذ البيعة عليهم للحسين، فكون صورة إيجابية عن الوضع العام ما لبث أن أرسل بتقرير عنها إلى مكة يحث فيه الحسين علناً لمجيء فور (في هذه الأثناء، تحرك أنصار الأمويين بعد ما أبدى بشير بن النعمان اعتدالاً، ورفض التجاوب معهم للقضاء على الحركة المعارضة مما دفعهم إلى رفع تقرير إلى الخلافة بدمشق يبين خطورة الوضع.

وسارع يزيد إلى عزل النعمان، وعين عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة بالإضافة إلى البصرة، وهو أحد الولاة الملقين بالقوة، وأمره بالقضاء على مسلم نهض عبيد الله بالأمر في حزم لا يعرف اللين ولا التردد واستطاع أن يضبط الأمور في الكوفة بسرعة عن طريق إثارة النعرات القبلية ثم راح يتعقب مسلماً سراً

وعلائية . فخاف مسلم على نفسه واحتمى بدار هاني بن عروة المرادي المذحجي، وهو من أشرف الكوفة وأخذ الشيعة يترددون إليه في داره، فكان مسلم يبايع من أتاه منهم، ويأخذ عليهم العهود والمواثيق المؤكدة بالوفاء. وعلم عبيد الله، عن طريق جواسيسه، أن مسلماً يقيم بدار هاني، فاستدعاه وطلب منه تسليمه إياه، فامتنع عن ذلك ، عندئذ قبض عليه وسجنه . وأقام، في الوقت نفسه، الحراس حول الكوفة ليراقب حركة الدخول إليها والخروج منها، وهذا يعني أن الإدارة الأموية علمت بأمر الحركة وكانت على بينة بمغادرة الحسين للحجاز في طريقه إلى الكوفة وعندما علم مسلم بسجن هاني، دعا من بايعه من الشيعة، حتى إذا تجمعوا لديه تقدم بهم إلى قصر الإمارة وحاصره. فأرسل إليهم عبيد الله يخوفهم المعصية ويهددهم بالعذاب، ففرقوا عنه، فلما ألقى نفسه وحيداً اختفى في أحد دور بني جبلة من كندة، لكن وشي به لدى الوالي الذي ألقى القبض عليه وقتله، كما قتل هاني ابن عروة. وافق يزيد على هذا التصرف، وكتب إلى واليه رسالة يقول فيها : بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح واحترس على الظن وخذ على التهمة، غير الأتقتل إلا من قاتلك) .

تثبت هذه الرسالة، بشكل واضحاًمر الخليفة لعبيد الله بن زياد في أن لا يقاتل الحسين وأصحابه إلا إذا قاتلوه" ويبدو أن مسلماً راح ضحية تسرعه وعدم تثبته من ولاء أهل الكوفة، كما أن النعمان بن بشير يتحمل نصيباً مما حدث، وذلك بتغاضيه عن تحركاته، ولو صدّه عن الاتصال بالكوفيين لكان قد فكر بالأمر، ولم يبادر إلى طلب قدوم الحسين .وعندما وصلت رسالة مسلم إلى الحسين، قرر الرجيل إلى الكوفة بالرغم من نصيحة عبد الله بن عباس وغيره من المحبين له الحريصين على سلامته بعدم تلبية الدعوة لأن السلطة فيها ما زالت أموية مع الأخذ بعين الاعتبار قضية التوازن القبلي فيها، وكون الذين راسلوه كانوا يمانيين، بالإضافة إلى أن أهلها قوم غدر، ولهم سوابق في ذلك . واقترح عليه ابن عباس إن هو أصر على الخروج إلى الكوفة أن لا يذهب إليها حتى يثور أهلها على أميرهم ويطرده وبذلك يصبحون ملتزمين بالعمل إلى جانبه، كما نصحه بأن يذهب إلى اليمن فيتحصن بقلاعها وشعابها ويحتمي بشيعة والده فيها .لكن الحسين تجاهل كافة النصائح، فخرج في أهله وقلة من أصحابه في التاسع من ذي الحجة عام ٦٠هـ شهر أيلول عام ٦٨٠م) متوجهاً إلى الكوفة. وكان ابن الزبير هو الوحيد الذي دفعته مصلحته إلى تشجيعه على الذهاب وهكذا، في الوقت الذي تحرك فيه الحسين باتجاه العراق، كان عبيد الله يضرب شيعته ويطاردهم. وشهدت الكوفة انقلاباً مضاداً للحركة، وإذا بالظروف تتحول المصلحة الحكم الأموي، وفقد الحزب الشيعي تضامنه خاصة بعد إعدام اثنين من كبار زعمائه.

ويبدو أن مسلماً استطاع أن يقنع معتقله محمد بن الأشعث (بأن يرسل رسولاً يخبر الحسين بالتطورات السلبية وينصحه بالعودة إلى مكة. وفعلاً تلقى الحسين الرسالة في زباله إلا أنه أثر متابعة طريقه، كما

تلقى نصيحة أخرى في شراف من قبل أحد قادة عبيد الله وهو الحر بن يزيد الرياحي ويبدو أن الحسين اقتنع أخيراً بعدم جدوى متابعة طريقه إلى الكوفة، فهم أن يرجع، لكن إخوة مسلم بن عقيل أبوا عليه ذلك حتى يصيبوا ثأرهم، فنزل على رأيهم، إلا أنه أدرك أن كل شيء قد ضاع)، استأنف الراكب رحلته باتجاه الشمال تحت مراقبة فرسان عبيد الله بن زياد حتى إذا وصل إلى كربلاء قابله عمر بن سعد بن أبي وقاص موفداً من قبل الوالي ومعه أوامر . وتلقى الحسين تعليمات الوالي القاضية بأن عليه أن يبايع يزيد، فأدرك عندئذ صعوبة الموقف، وعرض على عمر أحد الاقتراحات التالية : وإما السماح له بالذهاب إلى أحد الثغور النائية للجهاد ... مشددة بحسم الوض إما أن يرجع إلى المكان الذي أقبل منه، وإما أن يضع يده في يد يزيد ويعرض عليه قضيته، فيرى فيه رأيه.

ب- خروج أهل المدينة - وقعة الحرة :

تعود جذور الخلاف بين الحجازيين والأمويين إلى عدة أسباب لعل أهمها : ما أحدثه معاوية من تغيير في منهجية الحكم، فإن الكثيرين من الصحابة والتابعين في المدينتين المقدستين، مكة والمدينة، كانت نعمتهم على نظام معاوية الوراثي ذات دلالة خاصة، حيث اعتبروا عمل معاوية في تحويل نظام الخلافة عنطابعه الراشدي بدعة تناقض نهج الراشدين وطبيعة الخلافة، اعتبر سكان المدينتين المقدستين أن صلتهن بالإسلام هي صلة أهل القضية التي ارتبطت بحياتهن منذ ظهور الإسلام. من هنا كانت غيرتهن على قضية الإسلام ذات حساسية متميزة .

. موقف الشيعة من أنصار علي الذين ينكرون حق معاوية في الخلافة .

- عارضت بعض الفئات، من سكان المدينتين المقدستين، النظام الأموي لأسباب سياسية واجتماعية .

فمن الناحية السياسية كان طموح بعض أبناء الصحابة إلى الخلافة، كعبد الله بن

الزبير ، سبباً في سلوك النهج المعارض .

ومن الناحية الاجتماعية فإن انتقال مركز الخلافة من المدينة إلى دمشق قد أفقد الأولى مكانتها المركزية في العالم الإسلامي، وأفقد أغنياء الحجاز منافع كثيرة كانوا يجنونها من تلك المكانة المفقودة، كما شل نشاطهم الاقتصادي والسياسي وجعلهم في عزلة عن المسرح السياسي والاجتماعي، وكانت حادثة كربلاء الشرارة التي أشعلت الحرب وقد شكلت صدمة لأهل الحجاز، كما تركت آثاراً سياسية خطيرة في العالم الإسلامي. وما أكثر ما تحدث المسألة : . حالسهم معاني يزيد في الابتعاد عندنا للهتأضح خلعها ج ٥٣ / ٢٢٥ بالمدينة على حكمه .

واجه الخليفة هذا الموقف، فبيادئ الأمر، بالهدوء، والأناة، منفذاً سياسة سلمية مرنة مع الخارجين على حكمه، فعزل والي المدينة الوليد بن عتبة الذي اتصف بالقسوة والخرق، وولى مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان وهو شخصية مرنة .

استهل الوالي الجديد عهده بالإحسان إلى المدنيين، ثم بعث بوفد منهم إلى دمشق لحل المشكلات القائمة. استقبل يزيد أعضاء الوفد استقبالاً حسناً، فأكرم وفادتهم، وعظم جوائزهم لكن يبدو أن اللقاء كان فاشلاً بدليل أنه ما إن عاد أعضاء الوفد إلى المدينة حتى تجددت الانتقادات الموجهة إلى يزيد، ثم أقدم أهلها على خلع طاعته، والراجح أن الذي أثار زعماء المدينة هو حقدهم على بني أمية، وحتى يعطوا تحركهم مبرراً طعنوا في سلوك يزيد، وحاول عبد الله بن عمر بن الخطاب تحذيرهم من الخروج على طاعة الخليفة، وتفريق كلمة المسلمين، كما جاهد في حث الناس على عدم الاشتراك معهم ومنع أهله وولده من فعل ذلك وخشي عثمان بن محمد، عامل يزيد، من محمد، عامل يزيد، من انتشار الفتنة في الحجاز بعد اشتداد حملة الانتقادات الصريحة ضد الخليفة التي وصلت إلى حد التجريح بشخصه، والطعن بسلوكه، وأعقبها موجة من السخط استهدفت الأمويين عامة، وفعلاً انتهى الأمر بإعلان خلع يزيد بن معاوية ومبايعة عبد الله بن حنظلة الأنصاري واضطر الأمويون المقيمون فيها إلى الاحتماء في دار مروان بن الحكم التي طوقها الثائرون ويبدو أن الحصار كان ضعيفاً، وأن الثائرين بالرغم من سخطهم، كانوا يفتقرون إلى التنظيم والوحدة، لكن سلطة الخليفة تعرضت على أي حال للتحدي، ولم يجد المعتكفون من بني أمية سوى الرضوخ والاعتراف بإعلان حكومة مؤقتة في المدينة، لكن بعضهم أصر على ولاته للحكم الأموي فتعرضوا للطرد منها وجاء الرد على أحداث المدينة سريعاً من قبل يزيد الذي لم يستطع تجاهل الخروج على حكمه لكنه رأى أيضاً أن يعالج الموقف بالحكمة، فأرسل النعمان بن بشير الأنصاري إلى المدينة ليدعو الناس إلى العودة إلى حظيرة الدولة، ولزوم الجماعة، إلا أنه فشل في ذلك عندئذ لم يكن أمام يزيد إلا أن يواجه الناس بالحزم فبعث بجيش إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المري، يرافقه الحصين بن نمير السكوني وأعطى قائده أوامر مشددة بأن يدعو القوم ثلاثاً فإن استجابوا وإلا القتال).

وصل مسلم بن عقبة إلى المدينة في السابع والعشرين من شهر ذي الحجة عام ٦٨٣هـ/ شهر آب عام ٦٨٣م ، وضرب عليها حصاراً من جهة الحزة، وأنذر أهلها ثلاثاً، لكنهم لم يستجيبوا، وقاوموه مقاومة ضارية. ويبدو أن المدينة استعصت على الجيش الأموي الذي لم يتمكن من اقتحامها ودخولها مما دفع بمروان بن الحكم إلى استعمال الدهاء والحيلة، فنجح في دخولها مع ثلاثة من الفرسان ثم تبعه الجيش الذي دخلها من ناحية الطورين ودار اشتباك بين الطرفين انهزم بنتيجته أهل المدينة وقتل عدد كبير منهم. وجلس مسلم بعد الانتصار، فدعا الناجين إلى البيعة على أنهم في وعبيد ليزيد، فبايع الناس ومن أبيضقتل).

ج- حركة ابن الزبير:

تعد حركة ابن الزبير امتداداً لخروج أهل المدينة. وقد استغل ابن الزبير حادثة كربلاء، وخروج أهل المدينة والفراغ السياسي والقيادي الذي حصل بعد وفاة معاوية والنقمة الشديدة على يزيد في العالم الإسلامي، ليقود حركة مسلحة ضد بني أمية منطلقاً من مكة ليعيد الخلافة إلى منبتها الأول في الحجاز ودعا أعيان أهل تهامة والحجاز إلى بيعته، فبايعوه جميعاً باستثناء عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية، ثم طرد عمال يزيد من مكة والمدينة .

حاول يزيد، في غمرة هذه الأحداث، التفاهم مع ابن الزبير، فعرض عليه ولاية الحجاز وما شاء، وما أحب لأهل بيته من الولاية، على أن يبايعه بالخلافة، لكن ابن الزبير رفض العرض عندئذ أصدر يزيد أمراً إلى مسلم بن عقبة بالتوجه إلى مكة للقضاء على حركته. وفعلاً توجه هذا القائد إلى مكة، وما كاد يصل إلى المشلل حتى مرض وتوفي بعد أن عهد إلى الحصين بن نمير بقيادة الجيش، استأنف الحصين الزحف نحو مكة فوصلها في السادس والعشرين من شهر محرم عام ٦٤هـ/ شهر آب عام ٦٨٣ م) وضرب عليها حصاراً مركزاً بعد أن سيطر على جميع التلال والجبال المحيطة بها، ثم أخذ يضربها بالمنجنيق، وتولى الدفاع عن البيت الحرام جماعة من الخوارج النجدية، كانت المقاومة عنيفة بفعل خضوع المكيين لقائد واحد هو عبد الله بن الزبير، وانضمام خصوم الدولة الأموية إليه كالخوارج فضلاً عن المختار بن أبي عبيد الثقفي .

وبينما رحى الحرب دائرة أتى نعي يزيد فتوقف القتال، وأدرك الحصين، وهو أحد حكماء القادة العسكريين في الدولة الأموية، أن ورقة ابن الزبير ستكون الرابحة بعد ٥٦/٢٢٥ نف في دمشق فرأى أن يأخذ البيعة له شرط أن ينتقل معه إلى دمشق. رض عليه البيعة على شرطه رفض ابن الزبير هذا العرض، مفوتاً فرصة ذهبية، وذهل الحصين من موقفه هذا وأشار بشيء من السخرية متهماً إياه بقصر النظر السياسي .

ويبدو أن ابن الزبير أدرك أن أهل الشام مخلصون لبني أمية، كما أن الحصين ليس بالقادر على التكلم بلسانهم جميعاً، ولذا لم يكن بوسع الاطمئنان إلى وعوده. يضاف إلى ذلك أنه كان يرى في أهل الحجاز أنصاره وأعوانه، لذلك كان رفضه عن اقتناع منه حتى لا يصيبه ما أصاب الحسين من قبل . ثم حدث بعد ذلك أن رفع الحصين الحصار عن مكة وعاد إلى دمشق الواقع أن ابن الزبير كان المستفيد الأول من موت يزيد وارتباك الأسرة الأموية في معالجة النتائج السلبية التي انعكست عليها لكنه، وبالرغم من وجهة نظره، أضع الفرصة التي أتاحت له لإنقاذ العالم الإسلامي من الحرب الأهلية، ثم أعلنت خلافة معاوية الثاني بن يزيد في غضون ذلك في دمشق بينما أعلن ابن الزبير نفسه خليفة في المدينة .

الأحداث السياسية الخارجية في عهد يزيد :

لم تحصل أحداث تذكر في حقل السياسة الخارجية والفتوحات في عهد يزيد باستثناء ما حصل على الجبهة الأفريقية التي شهدت تطورات سريعة ملفتة للنظر، ذلك أن القيادة في القيروان قد خضعت للمتغيرات السياسية في دمشق، وأن الخليفة يزيد كان على علاقة طيبة بعقبة بن نافع فعينه والياً على أفريقيا وعزل أبا المهاجر عنها وقد تم ذلك في عام (٦٢٢هـ / ٦٨٢م)، وبتعيين عقبة ابتدأت المرحلة الرابعة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا . كان عقبة تواقاً إلى استئناف حركة الجهاد، لكن الظروف السياسية المحلية كانت قد تغيرت أثناء فترة عزله، فالبيزنطيون توصلوا إلى نوع من التفاهم مع بعض قبائل البربر الذين وجدوا في عقبة الشخصية الأكثر خطورة وتناقضاً مع نظامهم التقليدي بالإضافة إلى تهديد مصالحهم الاقتصادية والسياسية. وقرر عقبة التوسع غرباً فانطلق من القيروان غازياً على رأس جيش كبير، ومعه جموع من بربر أوروبا بزعامة كسيلة، ويرافقه أبو المهاجر وهو في حكم المعتقل، حتى نزل مدينة بجاية واشتبك مع البيزنطيين الذين تراجعوا إلى داخل المدينة واحتموا بها. لكنه لم ير تضييع الوقت في الاستيلاء عليها، ويبدو أنه لم يكن يطمع في السيطرة على القلاع بقدر ما كان يهدف إلى امتلاك زمام الأمور في الداخل مما يعطيه فرصاً أفضل لطرد البيزنطيين من شمالي أفريقيا فترك الحصار واتجه غرباً إلى إقليم الزاب الخصيب في المغرب الأوسط فاجتاحه وسيطر على عاصمته المسيلة. نتيجة لهذا التوسع، أضحت هذه الناحية مركزاً ثابتاً للمسلمين، بعد سهل أفريقيا الشمالي الذي تقوم فيه القيروان وتعتبر سيطرة المسلمين على هذا الإقليم نقطة تحول حاسمة في حركة فتوح شمالي أفريقيا، لأنهم دخلوا إقليماً بربرياً من أقاليم الداخل، وهيمنوا على منازل قبائل بربرية أشهرها لوانة وهوارة استأنف عقبة زحفه باتجاه تاهرت وتصدى لتحالف بيزنطي - بربري فيها وانتصر عليه وامتلك المدينة ، ثم انطلق إلى المغرب الأقصى ، فأخضع قبائله وامتلك طنجة وعند هذا الحد من التقدم، عاد عليه أدرجه باتجاه القيروان تاركاً نفوذاً للبيزنطيين ما يزال قائماً، وموقفاً غير واضح لقبائل البربر. وكان الحلفاء، في غضون ذلك، يتعقبونه لاقتناص فرصة سانحة للانقضاض عليه، وجاءت هذه الفرصة من قبله، دون أن يشعر، نتيجة حادثين : أنه أساء معاملة حلفائه من البربر كسيلة وجماعته، مما دفعهم إلى الفرار من معسكره وانضمامهم إلى أعدائه.

الثاني: أنه حدث أثناء عودته إلى القيروان أن سمح لأكثر فرق جيشه، بالانفصال عن جسم الجيش والعودة سريعاً إلى القيروان واستبقى معه خمسة آلاف مقاتل سار بهم إلى مدينة تهودة ليفتحها ، متخلياً عما تحلى به من الحذر، وما كاد علبة يقترب من تهودة، حتى ألقى نفسه مطوقاً من حشود بربرية وبيزنطية هائلة بزعامة كسيلة، فخاض معركة غير متكافئة انتهت باستشهاده مع عدد كبير من قوائمه في

أواخر عام ٦٤ هـ وأوائل عام ٦٥ هـ / ٦٨٣ - ٦٨٤ م والواقع أن معركة تهودة كانت كارثة على المسلمين فبالإضافة إلى استشهاد القادة انتاب الجنود المسلمين في القيروان حالة نفسية تركوا على أثرها المدينة، ودخلها كسيلة وبمقتل عقبة، تنتهي المرحلة الرابعة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا. وفاة يزيد توفي يزيد بن معاوية لأربع عشرة ليلة خلت من (شهر ربيع الأول عام ١٤ هـ / شهر تشرين الأول عام ٦٨٣ م)، وكان بحوران من أرض الشام، بعد أن حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً

معاوية بن يزيد: معاوية الثاني (١٤ هـ / ٦٤١ م)

٥٩ / ٢٢٥ اني ظاهرة أموية فريدة لم تحمل المصادر التاريخية من أخباره إلا مائة سنة ومرضه، وموقفه الخاص من الخلافة، إذ فكر في التخلي عن الخلافة، بعد قليل من مبايعته، وترشيح رجل آخر، بعد ما رأى انقسام المسلمين، وعدم قدرته على لم شملهم، إلا أنه لم يجد الرجل المناسب، فعزم على بعمر بن الخطاب في اختيار ستة أشخاص ينتخب الخليفة من بينهم، فلم يفلح، عندئذ ترك الأمر شورى للمسلمين يولون أمرهم من يشاؤون وتغيب في منزله، حتى توفي بعد ثلاثة أشهر من خلافته وغاب في النسيان مخلفاً وراءه أزمة حكم قليم الاقتداء خطيرة بعد وفاة يزيد كانت هناك بيعتان إحداهما في الشام لمعاوية بن يزيد، والثانية بمكة والحجاز العبد الله بن الزبير، فانكفأت بذلك سيطرة دولة الخلافة الأموية وتقلص نفوذها السياسي، فلم تتعد منطقة بلاد الشام.

ووجدت الخلافة الأموية نفسها بعد وفاته في موقف صعب بعد أن عمت الفوضى أرجاء العالم الإسلامي. ففي العراق، اشتعلت نار العصبيية القبليية بعد قرار عبيد الله بن زياد من البصرة تحت ضغط الأحداث السياسية وأدى ذلك إلى سيطرة العف حيث كانت كل قبيلة تحمي مصالحها. وللتخلص من هذا المأزق بعثت كل من الكوفة والبصرة بالوقود إلى مكة لإعلان البيعة لابن الزبير، فأرسل هذا الأخير لهما العمال من قبله، أما في الحجاز، فكانت بيعة ابن الزبير، كما وصلتة وفود من قنسرين وحمص ومصر تبايعه، ودخل أهل فلسطين في طاعتها وانقسم أهل الشام بين مؤيد لابن الزبير وبين مدافع عن مكتسبات الخلافة الأموية، فخطب له على سائر منابر الإسلام إلا منير طبرية من بلاد الأردن حيث رفض ٦٠ / ٢٢٥ ك بن بحدل الكلبي أن يبايعه وأراد الخلافة لخالد بن يزيد بن معاوية . العالم الإسلامي على وشك تحقيق وحدته السياسية مرة أخرى بزعامة عبد الله بن الزبير .

مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥ هـ / ٦٨٤ - ٦٨٥ م)

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، أبو عبد الملك. ولد في حياة النبي ، وكان ابن ثمانى سنوات حين توفي الرسول . وهو صحابي عند طائفة كثيرة من المؤرخين وإن كان ابن سعد بعده في الطبقة الأولى من التابعين.

عمر روى مروان حديثاً في صلح الحديبية كما روى عن طائفة من الصحابة منهم بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وهو رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين. أما فقهاء الأمصار فكلهم على تعظيمه و اعتبار خلافته والتلفت إلى فتواه والانقياد إلى روايته كان ذا شهامة ومرؤة وشجاعة ومكر ودهاء عمل مروان كاتباً لابن عمه عثمان بن عفان وكان صاحب سره، وحمله الناظمون على عثمان مسؤولية ما زعموا أنها أخطاء وقعت من الخليفة، كما اتهموه بأنه هو الذي كتب الكتاب الذي زعم الثوار المصريون أنهم وجدوه مع غلام عثمان. لكن مروان أنكر علمه بالكتاب كما أنكر عثمان نفسه ذلك .

وقاتل مروان في الدار أثناء حصار عثمان، ثم انضم إلى عائشة وطلحة والزبيرهم يوم الجمل وأمنه علي بعد ذلك، فبايعه مروان وعاد إلى المدينة لم يحضر صفين مع معاوية ورغم ذلك فقد ولاء المدينة بعد أن أضحى خليفة .

الأحداث السياسية في عهد مروان

أ- مؤتمر الجابية (٥٦٤هـ / ٦٨٤م):

اجتمع بنو أمية في دمشق في ظل انقسام العالم الإسلامي لإنقاذ خلافتهم المهتدة بالسقوط، وكانوا أسرى القوى القبلية المتنافسة والمتصارعة سياسياً وعسكرياً التي تعاضم نفوذها مع انهيار الحكم المركزي وتفرق الأسرة الحاكمة .

فالحزب اليمني بقبيلته كلب النافذة في البلاط الأموي، وهي عصب الدولة وقوتها بزعامة حسان بن مالك كان متشدداً في الحفاظ على امتيازاته، فقد تمسك بالأمويين، وخشي مناصروه من انتقال الخلافة إلى الحجازيين بعد أن ظلت في الشام منذ أن نقلها معاوية إليها.

أما الحزب القيسي الذي استاء من محاربة يزيد لأهل المدينة، وقد وصل مع زعيمه الضحاك بن قيس الفهري إلى مكانة كادت تنافس الحزب اليمني. ومنحته الأحداث السياسية، بعد وفاة معاوية الثاني، مركزاً متقدماً من خلال منصبه كأmir لبلاد الشام، حيث أتيح له أن يملأ الفراغ بصورة غير رسمية، وفي الوقت نفسه، وجد القيسيون في ظل تضعف الأسرة الأموية، في دعوة ابن الزبير لهم فرصة أخرى تمكنهم من التغلب على الكلبيين وانتزاع مواقع القوة من أيديهم، وهي المواقع التي اكتسبوها من تحالفهم مع معاوية ،

فأعلن الضحاك ولاءه لابن الزبير الذي عينه ممثلاً له في بلاد الشام . وتفرقت كلمة الأمويين وتنافسوا على منصب الخلافة، فتوزعت ولاءاتهم بين ثلاثة مرشحين :

- فقد أيدَ حسان بن مالك، خالد بن يزيد بن معاوية . ومال بعض القادة إلى مروان بن الحكم" وساند فريق ثالث عمرو بن سعيد بن العاص .

وأخيراً اتفقت عدول بني أمية على عقد مؤتمر في الجابية ليتداولوا فيمن يولونه الخلافة، ترأسه حسان بن مالك، وكان مروان الأوفر حظاً نظراً لشيخوخته وتجربته، حيث اعتبر مؤهلاً للحكم في ظروف استثنائية . وانتهى المؤتمر لمصلحة هذا الأخير حيث اختير خليفة بإجماع الحاضرين . وخرج الكلبيون ممن أيدوا خالد بن يزيد بترضية حيث اختير مرشحهم ولياً للعهد، على أن تكون الخلافة من بعده لعمر بن سعيد وبذلك انتقل الملك من الفرع السفيناني إلى الفرع المرواني، والحدث كلمة اليمينيين، ونجح التحالف الأموي - اليميني في إعادة توحيد الموقف السياسي من مشكلة الحكم.

ب - معركة مرج راهط:

كان اختيار مروان بن الحكم خليفة خطوة موفقة من وجهة النظر الأموية، لكن ما زالت تعترضه صعوبة تذليل عقدة القيسيين، فقد استاء الضحاك بن قيس من خروج الأمر من يد ابن الزبير، فغادر دمشق إلى مرج راهط، إلى الشرق منها، وعسكر هناك، وانضم إليه النعمان بن بشير والي حمص وزفر بن الحارث أمير قنسرين، وكان واضحاً أنهم يستعدون للحرب فكان على مروان أن يثبت أنه أهل الحمل عبء المسؤولية والدفاع عن الخلافة، وهكذا توضحت المواجهة بين الطرفين وأسفر الصراع عن وجهه القبلي، وظهرت بوادر حرب أهلية وحقق مروان أول نجاح سياسي له عندما استولى على دمشق وطرد عامل الضحاك منها، ثم عييا أنصاره وخرج إلى مرج راهط لمواجهة جموع القيسيين، وجرت بين الطرفين مفاوضات بهدف تسوية الموقف صلحاً استمرت عشرين يوماً، وصلت خلالها أنباء استيلاء المروانيين على دمشق وإخراج عامل الضحاك منها وإعلان خلافة مروان فيها، فتوقفت المفاوضات وأخيراً كان لا بد من المواجهة لتقرير المصير وفي الموقعة الشهيرة التي جرت بين الطرفين في شهر ذي القعدة عام ٦٤ هـ شهر حزيران عام ٦٨٤ م تم تدمير قوة القيسيين الذين انهزموا أمام اليمينيين، وقتل الضحاك في المعركة مع عدد كبير من أشرف قس في الشام .. وهرب زفر بن الحارث الكلابي بعد المعركة إلى قرقيسياً وتحصن بها، فلما جاءت خيل مروان عاد ففرّ منها ولحق بالعراق. كما بن بشير إلى حمص فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه، وفر نائل بن قيس من فلسطين واستتب الأمر لمروان في الشام وفلسطين ٦٤ /

ج - نتائج معركة مرج راهط:

كان المعركة مرج راهط، التي انتصرت فيها العصبية اليمنية على القيسية، آثار خطيرة في تجديد العداء التقليدي بين العصبيتين، وإشعال نار الفتنة، في سائر أنحاء العالم الإسلامي، فقامت الحرب بين اليمنية والقيسية في مناطق عديدة من الدولة الإسلامية.

استخلص مروان الشام كلها وبسط نفوذه عليها ، كما خضعت له فلسطين . وكانت خطوته التالية مصر بفعل أهميتها الكبيرة إذ إن استيلاءه عليها سيدعم موقفه في مواجهة ابن الزبير والمعروف أن معظم المصريين كان هواهم مع بني أمية وأن بيعتهم الابن الزبير لم تكن ثابتة، لذلك لم يجد مروان صعوبة في الاستيلاء عليها بعد تغلبه علوالها من قبل ابن الزبير عبد الرحمن بن جحدم في (شهر جمادى الآخرة عام ٦٥هـ/ شهر كانون الثاني عام ٦٨٥ م))، وبعد أن أقام فيها مدة شهرين رتب خلالها أوضاعها الإدارية وعين ابنه عبد العزيز والياً عليها عاد مروان بن الحكم إلى الشام ليواجه خطر ابن الزبير حيث أعد جيشين سير أحدهما إلى الحجاز بقيادة حيش بن دلجة، والآخر إلى الجزيرة بقيادة عبيد الله بن زياد المحاربة زفر بن الحارث بقرقيسياء، فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق للسيطره عليها ويبدو أن جيش الحجاز فشل في دخول المدينة، واستطاع الزبيريون القضاء عليه أما ابن زياد فقد تحرك باتجاه الجزيرة ووافته فيها أنباء نعي مروان. وهكذا عاجلت المنية مروان بن الحكم في مستهل شهر رمضان عام ٦٥هـ شهر نيسان عام ٦٨٥م دون أن يحقق هدفه بإعادة الحجاز والعراق إلى الحكم الأموي، وكان قد عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز بعد أن أقنع الكلبيين ممن ساندوا خالد بن يزيد بعدم قدرته على التصدي لابن الزبير، واعتبر ما تم في الجابية من العهد لخالد بن يزيد بعد مروان ومن بعده لعمرو بن سعيد، اعتبر هذا أمر ضرورة، وقد زالت الضرورة الآن).

عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م)

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الوليد أمير المؤمنين ولد في المدينة عام ٦٢٦هـ / ٦٤٧ م في خلافة عثمان بن عفان، وأمها عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية نشأ نشأة علمية حفظ القرآن الكريم وقرأ العلوم الدينية من الفقه والتفسير والحديث على مشيخة الحجازيين في المدينة، وروى الحديث عنهم، كما روى عن أبيه، وعن معاوية بن أبي سفيان، وعن أم المؤمنين أم سلمة، وعن بريرة مولاة عائشة، وروى عنه جماعة من التابعين كان عبد الملك يكثر من مجالسة العلماء، ولقب بـ حماسة المسجد بفعل ملازمته له ولمداومته تلاوة القرآن والأخبار متواترة على فقهه وجزارة علمه ورجاحة عقله، وتكاد المصادر تجمع على أنه كان خلال حياته الأولى، متديناً جداً ولعاً بالدراسات الدينية، لا يختلف في تدينه ولا ينازع في ورعه هذه الخلفية الدينية يجب تقييم سياسته بعد أن أضحي

خليفة، وإن كانت ظروف الخلافة قد أجبرته في بعض الأحيان على التصرف تبعاً لما يمليه الموقف السياسي، الذي يبدو أحياناً متناقضاً. مثله الدينية، ومع ذلك فيجب أن لا لذلك ومن يبالغ في هذا والحقيقة أن عبد الملك قضى معظم حياته قبل أن يلي الخلافة، في المدينة ينهل من علم فقهاءها، ولم يكن يغادرها إلا للحج أو للغزو .

ولما ذهب والده إلى مصر بعد معركة مرج راهط، تركه في دمشق يحكمها كتائب عنه، وبويع له بالخلافة في اليوم نفسه الذي توفي فيه والده من شهر رمضان عام ٦٥هـ/ شهر نيسان عام ٦٨٥م)، وهكذا ولي عبد الملك الخلافة في وقت كان العالم الإسلامي يسوده الاضطراب، حتى أشرفت شمس الدولة الأموية على الزوال، فانتشلها من الفوضى وأقام صرحها على أسس متينة لم يسبقه إليها من جاء قبله من الخلفاء، حتى اعتبر بحق المؤسس الثاني لدولة الخلافة الأموية.

الأوضاع السياسية في مستهل عهد عبد الملك :

وبقالات في مستهل عهد عبد الملك أربع فئات إسلامية كانت تتنازع السيطرة على فئة الأمويين الذين يسيطرون على الشام ومصر .

عبد الله بن الزبير وكان يسيطر على الحجاز والعراق. جماعة الشيعة في العراق، وقد كادت تقوم لهم قائمة بزعامة المختار بن أبيعبيد الثقفي .

جماعة الخوارج .

ودلالة على هذا الانقسام في العالم الإسلامي، فقد ارتفعت في موسم الحج في عام (٦٨ هـ) أربعة ألوية :

لواء عبد الملك بن مروان.

لواء محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية .

لواء نجدة بن عامر زعيم خوارج اليمامة.

لواء عبد الله بن الزبير

بالإضافة إلى ذلك فقد واجه عبد الملك محاولات يائسة من داخل البيت الأموي للسيطرة على الحكم. إزاء هذا الواقع، كان لا بد للخليفة من أن يتعامل مع هذا الموقف الشاذ. وقد اثبت مروان بن الحكم كفاءة عالية، ومقدرة فائقة في إدارة الأزمة، واستطاع بعد جهود مضنية، أن يصفى خصومه الواحد تلو الآخر بالصبر والأناة والمثابرة مبرهنًا عن نظريته الموضوعية والعميقة لجذور المشكلة خاصة حين أدرك أن هذه

القوى لا يربطها هدف مشترك سوى العداة له ولدولته ، بل يسود بينها تناقضات في الأفكار والأهداف، فوضع لنفسه خطة ذكية، وهي ترك هذه القوى تتصارع فيما بينها، وتقضي الواحدة على الأخرى، ومن يبقى منها في النهاية على مسرح الأحداث يكون الوهن قد أنهك قواها فيسهل عندئذ القضاء عليها، وفعلاً أدى تنفيذ هذه الخطة السياسية إلى سيطرة عبد الملك في النهاية، فحكما العالم الإسلامي من دمشق.

الأحداث السياسية الداخلية في عهد عبد الملك

أهم الحركات المعارضة للحكم الأموي

أولاً : المعارضة العلوية

١ - حركة الشيعة في العراق - معركة عين الورد

كان مروان بن الحكم قد جهز قبل وفاته جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد لإخضاع زفر بن الحارث بقرقيسياء في منطقة الجزيرة وعينه أميراً على كل ما يفتحه، فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق لإعادته إلى السيادة الأموية. فلما كان بالجزيرة أتاه نعي مروان، وكتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه والده ويحثه على المسير إلى العراق.

كان العراق الإقليم الأكثر تشنجاً من الأحداث السياسية، فالكوفة، وهي مركز المعارضة السياسية، كان الحزب الشيعي فيها يجتاز أزمة التقصير والشعور بالذنب بعد مأساة كربلاء، واضطر أهل الكوفة إلى الإخلاء إلى الهدوء طيلة حكم عبيد الله بن زياد حيث الأجواء السياسية لم تكن مشجعة لأية مبادرة ضد النظام بعد تنفيذ إجراءات الملاحقة وقبضة الحكم الأموي الحديدية مما أنزل الرعب في قلوبهم .

ولكن عندما عم الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد وفرار عبيد الله بن زياد، شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض بهدف وضع خطة للثأر لدمه. إذ بعد استشهاد هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته والدفاع عنه، معترفين بخطيئتهم بحماسة شديدة، لذلك لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا التقصير ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين وأخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي، لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذي سيتبعونه وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة والغفران. وقد عبر زعيم الحركة أنه لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه وغلب عليهم اسم التوابين وكان شعارهم الثأر للحسين.

وتحسنت فرص التحرك الفعلي للتوابين حين تبدل المناخ السياسي في أعقاب انضمام البصرة والكوفة إلى حركة ابن الزبير فانصرفوا إلى تعبئة الأنصار في المدينتين المذكورتين بالإضافة إلى المدائن وإلى جمع

الأسلحة، ومن ثم حددوا موعد التحرك، وكانت النخيلة المعسكر الذي تجمعوا فيه لاستقطاب المتطوعين من حق الحسين "

وقد رفض سليمان بن صرد عرضاً من عبد الله بن يزيد الأنصاري عامل ابن الزبير على الكوفة يقضي بإمداده بقوة عسكرية مساعدة كما رفض أتباعه فكرة اتحادهم مع ابن الزبير، ويبدو أن مرد هذا الرفض هو اعتقادهم أن هذا الأخير استولى على الخلافة التي وخرج التوابون من معسكرهم في النخيلة في الخامس من شهر ربيع الآخر عام ٦٥هـ/ شهر تشرين الثاني عام ٦٨٤م (وهو الموعد الذي حددوه لخروجهم. وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حتى العمق، فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذي أصدر الأمر بقتل الحسين، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدي لتحقيق الانتقام) ومر جيش التوابين ببلدة هيت على الفرات ثم صعد مع النهر إلى أن وصل إلقرقيسياء، وكانت هذه المدينة هي اسماً ببيعة ابن الزبيربعد المناطق في هذا الاتجاه التي اعترفت ولواستقبل أمير قرقيسياء زفر بن الحارث الكلابي جيش، التوابين بحماسة خاصة وأنه قد جمعت الفريقين مصلحة مشتركة هي مقاتلة الأمويين. واقترح زفر عليهم توحيد صفوفهم مع أنصار ابن الزبير، إلا أنهم اعتذروا عن قبول اقتراحه، كما رفضوا نصيحته بالعدول عن قرارهم الانتحاري، واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة ثم مضوا إلى مصيرهم .

والتقى التوابون بالجيش الأموي في عين الوردية من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربي من صفين في عام ٦٥هـ / ٦٨٥م ، وخاضوا ضده معركة ضارية غير متكافئة بفعل قلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموي، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة بن شداد الذي تراجع بالبقية القليلة منهم إلى الكوفة.

وهكذا انتهت حركة التوابين وهي في الواقع من الحركات الطائشة التي دفع بها الحماس إلى عدم التبصر، ولقيت هزيمة منكرة، ولم يكن لها من نتائج سوى المزيد من إراقة الدماء وتعميق الكراهية بين أهل العراق ودولة الخلافة الأموية .

وبلاحظ في هذه الحركة أمران الأول: أنها وصفت بالتشيع واعتبرها المؤرخون نقطة تحول جديدة في تطور الحزب الشيعي، إلا أنها لم تدع إلى إمامة أحد من آل البيت. الثاني: أنها كانت فاتحة عمل ما يزال أساسياً حتى الآن في الممارسات الشيعية، وهو زيارة قبر الحسين والترحم عليه، وهذا يعني مرحلة أخرى من مراحل تحول الحركة الشيعية من حركة سياسية محضة إلى حركة دينية سياسية.

ب - حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي:

تبعّت حركة التوابين حركة أخرى تنسب إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي وتعرف بالمختارية. تميزت هذه الحركة بمناهضتها للحكم الأموي ورفع شعار التشيع العلوي. كما ساهمت إلى حد كبير في تطور الشيعة كفرقة دينية وسياسية، فحددت الكثير من اتجاهاتها. كما كان لها تأثير هام في التاريخ الاجتماعي والسياسي للفترة الأموية خاصة، وللتاريخ الإسلامي عامة حيث أفادت حركات أخرى معارضة كالدعوة العباسية .

ظهر المختار في ميدان السياسة في عام ٦٤ هـ / ٦٨٤ م) . واتصف بالطموح السياسي، وأبرز ملامحه خاصتان: الاتجاه الشيعي (٢) ونزعة السلطة (٣)، وهو أول زعيم في الكوفة التقى مسلم بن عقيل واختار هذا الأخير منزله كمقر له ، كما قام بدور هام في التعبئة الشعبية فيها عشية خروج الحسين إليها، مما دفع الوالي إلى سجنه، ثم أطلقه بعد استشهاد الحسين وأمره بمغادرة الكوفة (٤) . فتوجه إلى مكة حيث اتصل بابن الزبير، ونشق معه ضد الأمويين على أساس شروط ثلاثة هي :

ان لا يقضي امرا دونه

أن يكون أول من يأذن له .

إذا ظهر استعان به على أفضل عماله (١).

والراجح أن هذا التنسيق جاء نتيجة استغلال حاجة ابن الزبير لمساندة قوى إسلامية أخرى في صراعه مع الأمويين، ليحصل المختار على ما يريد من منصب سياسي. لكن ابن الزبير كان قليل الثقة بالمختار بفعل تقلباته السياسية، ومن جهته فإن المختار لم يكن . مستعداً بأن يثق به أكثر . ذلك، فتباعد الرجلان وعاد المختار إلى الكوفة مقتنعاً نفسه بأنها الأرضية المناسبة لتحقيق آماله السلطوية . من

وصل المختار إلى الكوفة يوم الجمعة في الخامس والعشرين من شهر رمضان عام ٦٤ هـ / شهر نيسان عام ٦٨٤ م) (٢) في ظل نشاط محمود للثأر للحسين. فاستغل ٦٨٤م حركة التوابين لنيل أغراضه ضد ابن الزبير والأمويين، رغم أنه لم يكن هناك مجال للتنسيق بينه وبينهم بفعل اختلاف الاتجاهات السياسية، مع الأخذ بعين الاعتبار وحدة الشعور بين الطرفين.

ومن جهة أخرى، وجد المختار في سليمان بن صرد منافساً قوياً له، فراح يعمل على تفريق الشيعة عنه بتأكيده أنه أرسل إليهم من قبل المهدي ابن الحنفية (٣). فانقسم الشيعة إلى قسمين قسم مع سليمان يريد

الخروج للثأر للحسين، وقسم آخر يريد الخروج للدعوة إلى إمامة محمد بن الحنفية (١) مما أثر سلباً على قدرات التوابين العسكرية .

وفي الوقت الذي خرج فيه التوابون إلى عين الوردية، كان المختار، مرة أخرى، وراء قضبان السجن يفعل نشاطه المعادي لابن الزبير وتعيد الفرصة نفسها، ويغادر السجن بعد تدخل صهره، وأشرف الكوفة (١) .

وانتهز خلو الساحة السياسية من الزعامات الشعبية، فتحرك بتخطيط جديد. فيحكم نشأته في العراق، فإنه كان على اطلاع على أوضاع الكوفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية . فمن الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، فقد كان هناك تمايز بين العرب الموالي من جهة، وبين العرب أنفسهم من جهة أخرى. فنشأت، نتيجة هذه السياسة التي نفذها بعض خلفاء بني أمية وولاتهم، فئة اجتماعية محرومة من الامتيازات، تقسم

الضعفاء الذين نظروا إلى محمد بن الحنفية كمنقذ لهم، فاهتم بهذه الفئة بهدف استقطابها، وادعى أن المهدي ابن الوصي محمد بن علي أرسله إليهم أميناً ووزيراً

القتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته والدفاع عن الضعفاء (٢). والواقع أن المختار كان أول من أدرك وحاول أن يعالج التمايز القائم في الحقوق الاجتماعية والاقتصادية بين فئات المجتمع خدمة المصالحه، فتبنى مطالب الفئات الضعيفة بتحقيق المساواة مع الأشراف .

أما من الناحية السياسية، فقد أدرك مدى عمق الصراعات بين العرب أنفسهم، بين الذين شاركوا في الفتوحات الأولى، وبين الذين هاجروا فيما بعد، بالإضافة إلى الصراعات القبلية، فسعى لاستغلال هذه الأوضاع ورأى أن مصلحته تكمن في التحالف مع القبائل اليمينية لاسيما قبيلة النخع وزعيمها إبراهيم بن الأشر، فاستماله إلى جانبه (٣).

أما من الناحية الدينية، فقد اتسمت حركته بمحتواها الديني العقدي، فنادى بفكرة المهدي في شخص محمد بن الحنفية، فأطلق عليه لقب «المهدي»، كما استخدم فكرة البداء التي مكنته من تغيير آرائه من حين إلى آخر وأضفى على نفسه جلاله دينية، فبات كمن يعلم الغيب، أو يأتيه الوحي من السماء (١) .

وتمكن، أخيراً، من ضم بقايا التوابين والموالي، وبعض القبائل اليمينية وأضحى الزعيم الوحيد الذي يعترف به شيعة الكوفة (١) . وبعد أن تهيأت ظروف التحرك، ووجدت الأرضية الصالحة، استولى المختار على

الحكم في الكوفة، بعد أن هزم جيش والي عبد الله بن مطيع الذي اتصف بالجهل السياسي، فغادر هذا مقره واختفى عن الأنظار

وصعد المختار المنبر في الكوفة، وأعلن برنامجه على الناس (٤) . ثم راح يرسل الولاة إلى إمارات أرمينيا وأذربيجان والموصل والجبال ليحكموا باسمه ويبدو أن متاعب المختار الجديدة برزت بعد السيطرة على الكوفة، ذلك أن حركته لم تحمل في طياتها عوامل الاستمرارية، وأن الاحتفاظ بالسلطة كان مصحوباً بأخطار داخلية وخارجية (١) .

٧/٢٢٥ الداخل، كان التلاحم الشيعي وراه مرحلياً ومصطنعاً، خاصة وأنه فشل في التوفيق بين الشيعة المعتدلين والشيعة الغلاة كما أن غالبية أهل الكوفة، من غير الشيعة الذين واجههم بشدة كانوا يملكون القدرة المعنوية والمادية لإثارة المشاكل

ضد حكمه. أما الأشراف العرب، فإنهم لم يتقوا به منذ البداية، وشكوا في ولاته للقضية العلوية، فطاردهم حتى اضطروهم للخروج إلى البصرة، محتمين بمصعب بن الزبير، كما فقد تأييد ابن الأشر الذي كان ينتمي إلى طبقة الأشراف، فتركه ولحق بهم. والواقع أن المختار قد تخلى مؤقتاً، بعد وصوله إلى الحكم عن عزمه على قتل قتلة الحسين وعمل على تحقيق الاستقرار السياسي الداخلي من خلال التوفيق بين الأشراف والضعفاء وذلك ليواجه أعداءه في الخارج في اتجاهين متباعدين. فقد كان جيش الشام بقيادة عبيد الله بن زياد يتقدم باتجاه الموصل، وفي الوقت نفسه كان مهدداً من قبل ابن الزبير في البصرة والحجاز

وقد قوّض هذا العمل الهيكل الاجتماعي الذي كانت تستند عليه سيطرة الأشراف. ولم يكن بإمكانه أن يرضي فريقاً إلا على حساب الفريق الآخر، والراجح أن الظروف السياسية آنذاك هي التي حددت اختياره في التزام جانب الضعفاء. وفي الخارج، كان يترصد بالمختار خطران، خطر ابن الزبير الذي لا يزال يملك القوة الرئيسية في العراق، وخطر الجيش الأموي الذي كان يزحف باتجاه العراق. وحتى يتفرغ لجيش الشام، حاول المختار حصر ابن الزبير في الحجاز بالاستيلاء على البصرة، إلا أنه فشل في ذلك، كما اضطرت الفرقة العسكرية التي أرسلها للتصدي لعبيد الله بن زياد في الموصل، من الانسحاب رغم انتصارها في المعركة (٢) .

ترتب على هذا الانسحاب قيام انتفاضة ضد حكمه داخل الكوفة تزعمها الأشراف، إلا أنه قمعها بسرعة، ثم استغل الوضع السياسي للثار من قتلة الحسين وقد حقق المختار بهذا التصرف هدفين : (٣)

الأول: أنه بر بوعده، ولو بعد حين بالثأر للحسين .

الثاني: أنه أنزل العقاب بأولئك الأشراف الذين خرجوا على حكمه بعد أن ذهبت سدى جميع محاولاته لتفاهم معهم

وقد نتج عن هذه الحملة أمران: الأول: أن عشرة آلاف من الأشراف والقادة العرب من غير الشيعة، استطاعوا الهرب إلى البصرة والتجأوا إلى مصعب بن الزبير (١) . وقد أدى هؤلاء دوراً بارزاً في تحريضه ضد المختار.

الثاني: أنه زاد من شعبيته بين الشيعة وكسب رضا محمد بن الحنفية.

ثم حدث أن أرسل المختار، بعد الانتهاء من أحداث الكوفة، جيشاً، آخر بقيادة إبراهيم بن الأشتر لوقف زحف الجيش الأموي المتجه نحو العراق. ونجح هذا القائد الانتصار عليه في معركة جرت عند نهر الخازر في العاشر من شهر محرم عام ٦٧ هـ شهر تموز عام (٦٨٦م وقتل عبيد الله بن زياد في المعركة مع الحصين بن من نمير

تعاظم نفوذ المختار بعد هذا الانتصار وسيطر على شمالي العراق والجزيرة وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة في العراق بين دولتي ابن الزبير في الحجاز وعبد الملك في الشام، لكنه لم ينعم طويلاً بهذا النجاح بفعل أن حركته قد شكلت تهديداً لحركة الأول ولسلطة الثاني، وكان لا بد لأحدهما من أن يقضي عليه . ومن جهته، رأى المختار أن يسيطر على كامل العراق، ويتوسع على حساب القوتين معاً، فأعد جيشاً لانتزاع البصرة من يد مصعب . في هذا الوقت، انفض قائد إبراهيم بن الأشتر عنه ولحق بالأشراف في البصرة مما جرده من معظم ما ملكه من طاقات عسكرية، فأثر ذلك سلباً على وضعه القتالي حيث أصيب بخسارة فادحة في معركة المذار مع جيش مصعب، في (منتصف عام ٦٧ هـ/ أوائل عام ٦٨٧ م (٣) ولم يتمكن من الصمود داخل الكوفة بعد أن شدد مصعب الحصار عليه، فخاض معركة غير متكافئة انتهت بمقتله واستيلاء مصعب على الكوفة

وهكذا انتهت هذه الحركة التي كان شغل صاحبها الشاغل الوصول إلى السلطة بأية وسيلة، ولم تنفعه ادعاءاته بحب آل البيت والمطالبة بالثأر لهم. إذ سرعان ما انكشفت نياته وتخلي عنه أهل العراق.

ثانياً : حركة ابن الزبير زوال المختار من الميدان السياسي إلى انحصار المنافسة على زعامة العالم الإسلامي بين عبد الملك وعبد الله بن الزبير . ويبدو أن الأول لم يكن قادراً على التصدي للزبيريين في العراق والأقاليم الشرقية نظراً لتعرضه لبعض المشاكل الداخلية والخارجية التي تطلب حلها جهوداً خاصة. كان الوضع الداخلي الهاجس الرئيس للخليفة الأموي، حيث كان البيت الأموي لا يزال منطوياً على بعض خلافاته، وتحاك فيه المؤامرات. ويبدو أن عبد الملك عندما اتخذ قراره بالتصدي لابن الزبير وجد نفسه مضطراً لمعالجة بروز عمرو بن سعيد بن العاص كمنافس له على الزعامة الأموية، وقد نجح في القضاء عليه وأعاد اللحمة إلى البيت الأموي (١) . كما أنهى مشاكله بالحكمة مع حاكم قرقيسيا زفر بن الحارث ، ونجح في التخلص من نائل بن قيس الجذامي حاكم فلسطين المؤيد لابن الزبير أما الوضع الخارجي، فقد انتهجت الإمبراطورية البيزنطية في عام (٧٠) هـ / ٦٨٩ م) سياسة أشد نشاطاً وفاعلية على حدود الثغور الإسلامية منتبهة فرصة حدوث الاضطرابات داخل الصف الإسلامي، فاضطر عبد الملك أن يعقد معاهدة مع الإمبراطور جستنيان الثاني لضمان هدوء هذه الجبهة، مقابل دفع ضريبة مالية (٣). وبذلك يكون عبد الملك، قد مختلف المشاكل لصالحه وأضحى نظامه من القوة ما يكفي للمراهنة

على صعوبة إسقاطه من جهة، والقضاء على حركة ابن الزبير من جهة أخرى .. وأدرك الخليفة الأموي أن قوة ابن الزبير تكمن في العراق، وأن القضاء عليه في هذا الإقليم سيؤدي حكماً إلى إسقاط النظام الزبيرى بكامله لأن عوامل الصمود في (٢) الحجاز تكون قد فقدت الكثير من دعائمها، لذلك خرج على رأس جيش كبير إلى جسم العراق، في حين تحرك مصعب من الكوفة باتجاه الشمال للتصدي له .وانتهج عبد الملك، في غضون ذلك، خطة ذكية الإضعاف قوة خصمه، فكتب زعماء العراق في جيشه يستميلهم للانضمام إليه، كما كاتبه هؤلاء يدعونه إليهم. وقد علم مصعب بهذه المراسلات إلا أنه لم يتخذ بحقهم أي إجراء. ويبدو أنه لم يشأ إحداث شرخ في صفوفه، وهو على أهبة الاستعداد لدخول معركة . إلا أنه أظهر نفسه قائداً قصير النظر بفعل أن الخيانة أثرت على قوته حين تخلى هؤلاء الزعماء عنه وانضموا إلى خصمه مما كان سبباً من أسباب خسارته.ومهما يكن من أمر، فقد التحم الجيشان على نهر الدجيل عند دير الجائليق بمسكن في (شهر جمادى الآخرة عام ٧٢ هـ شهر تشرين الأول عام ٦٩١ م لة هـ /) وأسفر اللقاء بينهما عن انتصار واضح للجيش الأموي وقتل مصعب في المعركة ودخل عبد الملك الكوفة على إثر هذا الانتصار .لم يضع عبد الملك فرصة قطف ثمار انتصاره فقد أسرع بإرسال جيش إلى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي ليوجه إلى عبد الله بن الزبير الضربة القاضية . حاصر الحجاج مكة، وشدد على ابن الزبير الذي أضحى في موقف حرج يفعل انقضاض أتباعه من حوله نتيجة منح الحجاج الأمان لهم.وبالرغم من ذلك، لم تخن عبد الله شجاعته حتى في هذه اللحظة الأخيرة من حياته، واضعاً النهاية لأخطر حركة واجهت الدولة الأموية . وكان ذلك في (السابع عشر من شهر جمادى الأولى عام ٧٣هـ / شهر أيلول عام ٦٩٢م). وبهذا انتهت خلافة عبد الله بن الزبير التي استمرت تسع سنوات تقريباً ((. وبوفاته، وخضوع الحجاز لعبد الملك بن مروان توحد العالم الإسلامي من جديد تحت زعامة هذا الأخير الذي أضحى الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين.

عوامل فشل حركة ابن الزبير

عندما أعلن عبد الله بن الزبير خلافته في شهر رجب عام ٦٤ هـ / شهر شباط عام ٦٨٤ . م كانت عوامل النجاح متوفرة له ، إذ لم يكن للمسلمين آنذاك خليفة، فكانت خلافته شرعية ودعامة قوية لمصلحته، ثم بايعته الأمصار الإسلامية، باستثناء إقليم الأردن، فكان عليه أن يتحرك إلى الشام أو العراق حتى يدعم موقفه، إلا أنه أثر البقاء في مكة مما حرمه من حرية الحركة واعطى خصومه فرصة للتحرك استغلوها بنجاح. نجح عبد الله بن الزبير، في بداية حياته السياسية في استغلال عواطف الفئات المعارضة للأمويين فالتقوا حوله لكن حركته لم تتماش مع تطورات الأحداث السياسية، وبدت في كثير من الأحيان مشابهة لمواقف الأمويين الذين تار عليهم.تميز ابن الزبير في ثلاثة أمور هي : الشجاعة والعبادة

والبلاغة. لكنه اتصف بالقادة بالشخ، مما أثر سلباً على حركته في الوقت الذي كان فيه بنو أمية يوزعون الأموال لاستقطاب زعماء القبائل العسكريين. فاتصرف الناس عنه . كم يبدو أن ابن الزبير رغم مواقع القوة التي استقطبها من خلال كسبه لمعظم القوى المعارضة للأمويين لم يكن من الحنكة السياسية، وبعد النظر بحيث يستفيد من هذه المواقع أو يحتفظ بها .لم يحسن ابن الزبير معاملة بني هاشم، ولم يقدر مكانتهم بين المسلمين فتحامل عليهم وسجنهم ، مما دفع هؤلاء إلى عدم مبايعته، فأضعف مركزه. لكنه حظي في الوقت نفسه بثقة الحجازيين، وكان يأمل في رد الاعتبار لإقليم الحجاز، بعد تفوق إقليم الشام بفعل نقل العاصمة إلى دمشق لم يحسن ابن الزبير استغلال الموقف السياسي بالشكل المطلوب وبدا وكأنه ها و ، بحيث جاءت علاقته مع المعارضة فيالعراق تعبر عن قصر نظره في هذا الحقل، وفي فقدان الفرص الكبرى للسيطرة على الحكم. جعل ابن الزبير مقر حكومته في الحجاز، وكان هذا الإقليم، بعد أن انصرفت عنه العناصر السياسية إلى الشام والعراق. ماوى الطبقة الأرستقراطية التي مالت إلى حياة اللهو نظراً لتدفق الثروة عليها . بالإضافة إلى ذلك فإن الحجاز قليل الموارد، ففقد ابن الزبير بذلك الكثير من الطاقات البشرية والاقتصادية المتوفرة في الشام والعراق .فات ابن الزبير التحول الذي أصاب المسلمين والخلافة الأموية من جراء حركة التوسع والانتشار الإسلامي . فإذا هو غير قادر على استيعاب المعطيات الجديدة. اعتمد ابن الزبير، في نشر دعوته، على أنصاره المنتشرين في الأمصار في حين كانت السياسة الصائبة تقضي عليه بأن يتولى ذلك بنفسه، فنتج عن ذلك أن دعوته لم تصل رغم سيطرتها حيناً على معظم أجزاء الدولة الأموية، إلى تحقيق التعبئة المنظمة . أثرت معارضة الشيعة، والخوارج في مرحلة لاحقة، سلباً على قوته بحيث توزعت بين قتال هؤلاء وتعقب أولئك .

ثالثاً :: الخوارج

ظل الخوارج، وهم القوة التي بقيت خارج نطاق التطاحن الدموي، يعارضون الأمويين، لأنهم اعتبروهم مغتصبين للخلافة، كما كان لحالة الاضطراب السياسي التي شهدتها العالم الإسلامي، وسياسة الحجاج القاسية في العراق، دور في تشجيعهم على تحدي الحكومة المركزية. وقد ابتكروا نظاماً جديداً في التعبئة العسكرية يعتمد على الحركة السريعة والاحتفاظ بزمام المبادرة مما أعطى حركتهم بعض الاستمرارية. صراعات وكان أول موقف سياسي منظم اتخذه الخوارج هو التحالف مع عبد الله بن الزبير في مكة. ولم يلبث هذا التحالف أن انفرط بعد أن تبين لهم أن ابن الزبير يخالفهم الرأي، فغادروا مكة

والقسموا على إثر ذلك إلى عدة فرق نتيجة وقوع صر داخلية بين صفوفهم، تعود في جوهرها إلى اختلافات سياسية وعقائدية وقبلية في آن واحد، (١) ، لعل أشهرها الأزرق والصفرية والأباضية

١ - الخوارج الأزرق

استغل نافع بن الأزرق الأوضاع السياسية المتردية التي كانت تمر بها الخلافة الأموية، فمارس نشاطاً عسكرياً مكثفاً وعنيفاً، واستولى على البصرة، فجبي خراجها وانتشر عماله في السواد. ويبدو أن الجو السياسي العام في البصرة لم يكن مشجعاً على استلامه الحكم بعد اتفاق البصريين على التصدي له، لذلك اكتفى بإخراج أنصاره من السجون وغادرها إلى الأهواز (١) ، حيث أخذ يصعد منها هجماته العسكرية . وقتل نافع بن الأزرق في إحدى حملاته على البصرة في عام (٦٥ هـ / ٦٨٥م) فخلفه عبيد الله بن الماحوز. في هذا الوقت عهد ابن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة بقتال الخوارج، وتمكن هذا القائد من إبعادهم عن الأهواز، وقتل ابن الماحوز خلال الاصطدامات وعندما دخل العراق تحت سيادة عبد الملك بعد مقتل مصعب بن الزبير، أضحى من الضروري اتخاذ إجراءات فعالة ومباشرة ضد الأزارقة، خاصة بعد سيطرتهم مجدداً على الأهواز، مشكلين بذلك تهديداً مباشراً للبصرة والمناطق المجاورة لها . ومن جهته، أدرك عبد الملك جسامة الخطر الذي يشكله هؤلاء على الحكم الأموي في العراق، لذلك تفرغ لقتالهم. فعين المهلب بن أبي صفرة لمحاربتهم، بعدما استنناه من العقاب الذي انزله بأعوان ابن الزبير على اعتبار أنه صاحب خبرة في حربهم وأظهر المهلب إخلاصاً في حربه ضد الخوارج، وتمكن، بعد سلسلة طويلة من الاصطدامات معهم استمرت على مدى ثلاث سنوات من القضاء عليهم في منتصف عام (٧٨ هـ / ٦٩٧م) . وقد ساندته وال صلب هو الحجاج بن يوسف الثقفي

ب - الخوارج الصفرية

في الوقت الذي كان فيه الخوارج الأزرق يهددون البصرة، كان الخوارج

الصفرية يهددون الكوفة، منطلقين من نواحي الموصل، وتمكنوا اعتباراً من عام (٧٦ هـ / ٦٩٥م من اجتياح العراق من الموصل حتى الكوفة والمدائن وخانقين بعد أن تغلبوا على الجيوش الأموية التي كانت تتصدى لهم . ويبدو أن قوتهم كانت تفتقر إلى الطاقات الضرورية للمضي إلى أبعد من ذلك، وما كانت ترمي إليه في تلك الفترة هو تحقيق انتصارات سريعة لكن مرحلية تستنزف القوى الأموية . ومن جهتها، فإن الإدارة الأموية سخرت قوى شامية للتصدي لقوة الخوارج الصفرية بعد فشل القوى العراقية في الصمود في وجههم، وقاد الحجاج عمليات التصدي والمطاردة، وتمكن، بعد سلسلة من المعارك من التغلب عليهم، كان آخرها معركة نهر الدجيل في عام (٧٧ هـ / ٦٩٦م) حيث لم يصمد فيها الخوارج، بقيادة شبيب بن

يزيد بن نعيم وانسحبوا عبر جسر من القوارب أقاموه على النهر. وكان شبيب أول المنسحبين ، فغرق وهو يعبر النهر شكل نقطة تحول هامة في حركة الخوارج الصفرية، لأن خليفته البطين لم يكن له الحماس نفسه بالرغم من استمرارية تحديه للدولة، لكن سرعان ما ألقى القبض عليه، وقتل بأمر الحجاج، فطلب الصفرية عندئذ الأمان فمنحوا إياه موت شبيب

ج - خوارج اليمامة

هاجم خوارج اليمامة، بقيادة نجدة بن عامر الحنفي، اعتباراً من عام (٦٥) هـ / (٦٨٥ م) ، البحرين ومناطق أخرى على الشريط الساحلي الشرقي للجزيرة العربية. فاشتدت شوكتهم، وهددوا بشكل مباشر، سلطان ابن الزبير الذي لم يجرؤ على التصدي لهم بسبب ضعفه وبدا نجدة مساوياً في نفوذه لكل من عبد الملك وابن الزبير وعندما دخل العراق في حوزة عبد الملك، تصدى لخطر خوارج اليمامة ، وكانوا بقيادة أبي فديك عبد الله بن ثور فجردهم حملة عسكرية اصطدمت بهم في المشفر في البحرين، دارت الدائرة فيها عليهم ، وقتل أبو فديك واضطر أتباعه إلى التسليم وبهذا الشكل كان سقوط الخوارج النجدية في اليمامة والبحرين بحيث لم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

رابعاً حركة ابن الأشعث

تعتبر حركة ابن الأشعث إحدى أهم الحركات التي قام بها أهل العراق ضد الحكم الأموي، بفعل أنها هزت أسس هذا الحكم وكادت أن تقوضه، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبي كما هو الحال في حركات الخوارج والشيعية .والحقيقة أن عبد الرحمن بن الأشعث زعيم قبيلة كندة، وأحد زعماء الكوفة، استغل العداء العميق المتجذر والحقد الدفين الذي يكنه أهل العراق للدولة الأموية، وأشعل هذه الحرب التي كانت إحدى أخطر الحركات التي واجهها عبد الملك بن مروان ..كان الحجاج بعد القضاء على حركات الخوارج في العراق في عام (٧٨) هـ (٦٩٧ م) ، يعمل على تحجيم المعارضة السياسية، وتشثيت جهودها وبعثرة عناصرها، نقادياً لأي فشل في مهمته الصعبة. ولعل اهتمامه بالفتوحات الخارجية إلى ما وراء جنسان والتعبئة العسكرية الواسعة التي بادر إليها مباشرة بعد تصفية الخوارج ؛ هي نتيجة لهذه السياسة .وكان رتبيل ملك كابل قد هزم جيشاً إسلامياً في عام (٧٩) هـ / ٦٩٨م بقيادة عبيد الله بن أبي بكر، فأحدثت هذه الكارثة وقعا أليماً في نفس الخليفة الذي كلف واليه على العراق، بإرسال جيش لتأديبه. وفعلاً أعد الحجاج جيشاً ضخماً بالغ في تجهيزه، وعهد بقيادته إلى عبد الرحمن بن الأشعث الذي لم تكن علاقته به جيدة، وقد عينه حاكماً على سجستان وأمره بإخضاع رتبيل تقدم عبد الرحمن بهذا الجيش في عام (٨٠) هـ / ٦٩٩ م باتجاه سجستان وهاجم معاقل رتبيل الذي انسحب من أمامه إلا أنه لم يتمكن من إخضاعه، نظراً لطبيعة المنطقة الجبلية الوعرة، ثم وجد القائد الأموي نفسه و واقعاً في مازق الاختيار بين الاستمرار

في التقدم وراء فلول الترك، أو التوقف والاكْتفاء بانتصاراته الجزئية المحدودة حتى يتاح للجند التأقلم مع طبيعة البلاد الجبلية، وانتهى إلى قرار بتجميد العمليات العسكرية لمدة سنة والتراجع إلى بست إحدى مدن سجستان، وكتب إلى الحجاج بهذا القرار . لكن الحجاج، بدافع من خلفيات سياسية ضيقة، رفض اقتراح قائده، وجدد له الأمر بالزحف وراء القوات التركية وهدده بالعزل إذا خالف ذلك شعر ابن الأشعث بالإهانة في مخاطبة الحجاج له بهذا الأسلوب، كما أثار أتباعه الذين رأوا في هذه السياسة مؤامرة أخرى ضدهم للحوول دون عودتهم إلى العراق خاصة أنهم يشكلون شريحة اجتماعية كبرى، من الرأي العام المعارض. فكان الموقف في بست أقرب إلى التشنج واستقر الرأي أخيراً على خلع الحجاج . فبايعوا ابن الأشعث وزحفوا باتجاه العراق .ويبدو أن ابن الأشعث ضرب على الوتر الديني لإثارة الحماس في أتباعه ضد الحجاج، متهماً إياه بأنه غير متدين مما أثار حفيظتهم بدليل أنهم بايعوه على خلع أئمة الضلالة وجهاد الملحدين). وهكذا بدأت هذه الانتفاضة وكأنها نتيجة خلاف ديني مع أن دوافعها الحقيقية تتلخص بما يلي :سياسية بفعل تحجيم المعارضة العراقية.شخصية بفعل اختلاف الرؤية في الأمور بين الرجلين .اجتماعية بفعل عدم المساواة بالعطاء بين أهل الشام واهل العراق وبين العرب والموالي، بالرغم من أن هؤلاء لم يشكلوا فيها قوة ضاغطة خاصة على المستوى القيادي .اعتبرت جماعة ابن الأشعث عرض الخليفة دليل ضعف، فرفضوه بكل ازدراء : أن ميزان المعركة لا يزال في اتجاه مصلحتهم، بالرغم من ان ابن الأشعث معتقدين نفسه قبل العرض، إلا أنه نزل على حكم جنده .وأخيراً التقى الجيشان الشامي والعراقي في دير الجماجم ودارت بينهما رحى معركة ضارية في الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة عام ٨٢ هـ شهر تموز عام ٧٠١ م)، أسفرت عن انتصار واضح للجيش الشامي وهزيمة ابن الأشعث الذي في هارباً إلى سجستان، إلا أن الحجاج لم يتركه وشأنه وأجبر رتبيل على تسليمه له. ولما علم ابن الأشعث بذلك انتحر بأن ألقى بنفسه من فوق القصر. وانتهت حركته بموته وشهد عهد عبد الملك حركات أخرى معادية لحكمه كانت محدودة النتائج، لم تشكل خطراً جدياً على مصير الخلافة، ولم تترك أثراً على المجتمع الإسلامي آنذاك، أثارها قساوة الحجاج وسياسته الاقتصادية، نذكر منها حركة عبد الله بن الجارود، وحركة الزنج في البصرة، وخروج قبائل الأزدي في عمان وهكذا. ثابر عبد الملك، وجاهد لتوطيد دعائم الدولة الإسلامية تحت قيادته ونجح في ذلك نجاحاً فائقاً، ومن هنا استحق عن جدارة لقب موحد الدولة الإسلامية أو المؤسس الثاني لدولة الخلافة الأموية بعد معاوية مؤسسها الأول.وعقد ابن الأشعث قبل تحركه باتجاه العراق هدنة مع رتبيل ليكون أكثر حرية التصرف، وليؤمن خط الرجعة له. وتضمن الاتفاق بين الرجلين أنه إذا انتصر على الحجاج فسيمنح رتبيل إعفاء من دفع الجزية طالما بقي في السلطة، أما إذا حدث العكس فإن رتبيلسيو من له ملجأ لديه .ولما بلغ الحجاج خیر خروج ابن الأشعث، انزعج انزعاجاً شديداً، وراح يترصد زحفه على مضض، خاصة وأنه يعاني من قلة التجهيزات. لذا طلب مدداً من دمشق على

وجه السرعة ، ثم تلقى أولى هزائمه في تستر في إقليم خوزستان ، في(شهر ذي الحجة عام ١ هـ / شهر كانون الثاني عام (٧٠١م) ، فتراجع إلى الزاوية بالقرب من البصرة.كانت أولى ثمرات هذا الانتصار الذي حققه ابن الأشعث دخوله البصرة حيث بايعه أهلها، لكن الحجاج انتصر في الزاوية في شهر محرم عام ٨٢ هـ / شهر شباط عام ٧٠١م)، واضطر ابن الأشعث إلى مغادرة البصرة، وعاد الحجاج إليها . ويبدو أن ابن الأشعث جدد انتصاراته التي تزايدت ودخل الكوفة ثم غادرها إلى دير الجماجم حيث أقام معسكره في حين نزل الحجاج دير قرة بانتظار وصول النجدات من الشام. كان الخليفة عبد الملك، في غضون ذلك، على اتصال دائم بالأحداث المقلقة في العراق وأبدى مخاوفه من ازدياد تدهور الأوضاع إلى درجة تفقد معها الخلافة زمام الأمور. وبناء على نصيحة مستشاريه، أرسل إلى ابن الأشعث وفداً يحمل الاقتراحات التالية، بهدف حل هذه القضية عزل الحجاج عن العراق واستبداله بـ محمد بن مروان . المساواة في العطاء بين أهل الشام وأهل العراق . تعيين عبد الرحمن بن الأشعث على اية ولاية يختارها في العراق .

سياسة عبد الملك الخارجية

أ- الجبهة الشرقية

لم تسمح الاضطرابات المتلاحقة التي اجتاحت النصف الشرقي من الدولة الإسلامية، للمسلمين بالتوسع في فتوحاتهم. وكانت السياسة الخارجية التوسعية على هذه الجبهة هي آخر اهتمامات عبد الملك لانصرافه إلى معالجة القضايا الداخلية، فكان الجمود هو الطابع العام لسياسة الفتح في ذلك الوقت. لكن قوة الدولة المختزنة سمحت للمسلمين بتحقيق بعض الفتوحات التي لم تكن كبيرة في هذه المرحلة، ولم تنتشر فتوحات ما وراء النهر إلا منذ أن تولى الحجاج ولاية خراسان مع العراق في عام (٧٨) هـ / ٦٩٧ م) ، فولى خراسان المهلب بن أبي صفرة الذي غزا مع أبنائه بلاد ما وراء النهر خاصة مدينة كاش، والختل، وريخش وتابع أبناؤه بعد وفاته سياسة الجهاد هذه، إلا أن فتوحات المسلمين لهذه المنطقة لم تأخذ مظهرها الجدي إلا عندما ولى الحجاج، قتيبة بن مسلم الباهلي ولاية خراسان في عام (٨٦ هـ / ٧٠٥ م)

ب - الجبهة البيزنطية

فقد المسلمون من قوتهم أمام الروم البيزنطيين في عهد الاضطرابات الداخلية التي عصفت بدولتهم، فانتهز الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني هذه الفرصة ونقض المعاهدة التي سبق وأبرمها البيزنطيون مع المسلمين وساق جيوشه لقتالهم، فاجتاح بلاد الشام في عام (٧٠) هـ (٦٨٩ م)

في هذه الأثناء وقع على الطرف الشرقي للإمبراطورية البيزنطية حادث بالغ الأهمية في تطور العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين ففي الحديث عن الشواتي والصوائف التي كان يقوم بها المسلمون ضد الدولة البيزنطية، تحدثنا المصادر عن وجود جماعات من المردة النصارى في جبال أمانوس وقد ألقوا جيشاً واتخذت منهم السلطات البيزنطية سياًجاً في هذه المنطقة

كان المردة، بحكم موقعهم الجغرافي ووضعهم السياسي، يحمون الدولة السنتية، من هجمات المسلمين ويدافعون عن معاقلهم الجبلية المنيعه ضد أي اعتداء ٩٢ / ٢٢٥ ما توغلوا جنوباً حتى وصلوا إلى جبال لبنان. وقد ضايقوا المسلمين را يشنونه من غارات مستمرة على المناطق المجاورة خاصة المناطق الساحلية، بتحريض من البيزنطيين، فاضطر عبد الملك إلى شراء سكوتهم تقادياً للحرب في هذه المنطقة من جهة وللتفرغ للمشاكل الداخلية التي استجدت في العالم الإسلامي من جهة أخرى، فعقد مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني معاهدة في عام (٧٠) هـ / ١٨٩ م) تعهد الخليفة بمقتضاها أن :

١ - يدفع مالاً معيناً للإمبراطور البيزنطي يبلغ سنوياً ثلاثمائة وخمس وستين ألف قطعة ذهبية، وثلاثمائة وخمسة وستين عبداً وثلاثمائة وخمسة وستين جواداً أصيلاً، مقابل، وقف الغارات البيزنطية، على الأراضي الإسلامية. ٢ - تقسم الدولتان الإسلامية والبيزنطية خراج أرمينيا وقبرص وإيبيريا . ٣ - تسحب الإمبراطورية البيزنطية المردة من منطقة شمالي الشام إلى ما وراء جبال طوروس داخل آسيا الصغرى . ٤ - تستمر المعاهدة مدة عشرة أعوام كان من نتيجة انسحاب المردة من جبال لبنان وشمالي الشام أن دمر ذلك السور النحاسي الذي كان يحمي آسيا الصغرى من غارات المسلمين، وسمح لهؤلاء تجديد غاراتهم على هذه المنطقة وتوطيد مركزهم في الأقاليم التي فتحوها حديثاً. فعادت غزوات الشونان والصوائف، ونجم عنها فتح قيسارية في عام (٧١١هـ / ٦٩٠ م) .

وفي عام (٧٣٣هـ / ٦٩٢ م) كشف عبد الملك عن نواياه تجاه الإمبراطورية البيزنطية بعد ما فرغ من مشاكله الداخلية، عندما قام بضرب الدنانير الذهبية الإسلامية وأرسلها كجزية بدلاً من العملة البيزنطية. وقد حمل هذا التصرف معنى التحدي للإمبراطور من جهة، كما دلّ على أن الخليفة على وشك استئناف النشاط العسكري على الجبهة البيزنطية من جهة أخرى .

له ١٠- المسلمون في عام (٧٣) هـ / ٦٩٢ م آسيا الصغرى وحققوا انتصاراً

٩٣ / ٢٢٥ اقتصر رد بيزنطية على غزو مرعش في عام (٧٦ هـ / ١٩٥ م) ، وهذا مبين سبب الضعف الذي كانت تعانيه الإمبراطورية البيزنطية. وإذا كان حكم الامبراطور جستنيان الثاني الضعيف انتهى بعزله في عام (٧٦ هـ / ٦٩٥ م)، فلم يكن الأمر بأفضل حالاً في ظل خلفه الإمبراطور ليونتيوس حيث استمرت الغارات الإسلامية على مناطق آسيا الصغرى والمناطق الحدودية، فغزا الوليد بن عبد الملك ملطية في عام (٧٧) هـ / ٦٩٦ م). كما غزا عبيد الله بن عبد الملك قاليقلا عند منابع نهر الفرات).

ومن حسن حظ الامبراطورية البيزنطية أن الاندفاع الإسلامي باتجاه المناطق الحدودية، وفي عمق الأراضي البيزنطية قد تراجع اعتباراً من عام (٨١ هـ / ٧٠٠ م) يفعل عاملين الأول اجتياح مرض الطاعون بلاد الشام في عام (٧٨ هـ / ٦٩٧ م) والثاني قيام ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في عام (٨١ هـ / ٧٠٠ م) والتي استمرت أربعة أعوام .

استغل الامبراطور البيزنطي طيباريوس الثالث (هذه الأوضاع وكلف نشاطها العسكري وهزم المسلمين عند سميساط وفي منطقة قيليقيا في عام ٨٤ هـ / ٧٠٣ م) إلا أن عبد الملك، وقد فرغ من مشاكله مع ابن

الأشعث هاجم إقليم قيليقيا واصطدم بالقوات البيزنطية عند مدينة سيواس، وكانت بقيادة الإمبراطور نفسه، وانتصر عليها وبذلك تكون قد عادت سيطرة المسلمين مجدداً على منطقة أرمينيا. كما تم فتح المصيصة ، وهكذا سرعان ما استعادت الدولة الإسلامية تفوقها الملحوظ على البيزنطيين بفعل مقدرة عبد الملك .

٩٤ / ٢٢٥ بالي أفريقيا

الجبهة الأفريقية المحور الجدي لسياسة الفتوح في عهد عبد الملك بن مروان، إذ خاض المسلمون عدة معارك لتصفية القواعد البيزنطية على الساحل الشمالي وإخضاع البربر لسلطة الدولة.

فبعد أن هدأت أوضاع الخلافة الأموية نسبياً، وجد عبد الملك أمامه متسعاً من الوقت ليقوم بعمل ما في أفريقيا، خاصة وأنه خشي من انعكاس نتائج التحالف البيزنطي - البربري وما يمكن أن يسببه من تهديد للحدود الغربية لدولته، فعهد إلى زهير بن قيس البلوي بقيادة العمليات العسكرية وأمره بالانتقام من كسيلة، واستعادة الأراضي التي أخلاها المسلمون بعد مقتل عقبة . وتعيين زهير الأفريقية، تبدأ المرحلة الخامسة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا . كانت فاتحة أعمال هذا القائد انتصاره الكبير على كسيلة قرب ممس ودخوله قائداً للجبهة

القيروان. والجدير بالذكر أن كسيلة قتل في المعركة ، إلا أنه لقي مصرعه في صدامه مع البيزنطيين عند درنة، مما دفع عبد الملك إلى تجميد الجبهة الأفريقية بانتظار فرص أفضل) في الوقت الذي كان فيه منهمكا في إخماد حركة ابن الزبير

وما وافى عام (٧٤ هـ / ٦٩٣ م ، حتى وجد عبد الملك نفسه قوياً إلى الحد الذي يمكنه من استئناف سياسة الفتوح في شمالي أفريقيا، خاصة بعد أن تجاوزت الخلافة محنتها في الداخل المتمثلة بالقضاء على ابن الزبير، وجاء اختبار حسان بن النعمان الغساني قائداً جديداً، مؤشراً على ذلك) . وتعيين هذا القائد تبدأ المرحلة السادسة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا.

كانت فاتحة أعمال حسان فتحه لقرطاجنة ،أقوى القواعد العسكرية البيزنطية، وحتى يحول دون عودة البيزنطيين إليها، فقد دمر ميناءها. وقد دهم هذا الفتح الموقف الإسلامي، فقام المسلمون بعمليات سريعة استهدفت المدن الساحلية ففتحوها باستثناء جيوب قليلة منها سبتة التي ظلت الحصن القوي للبيزنطيين .

وقد دعم هذا النصر الموقف العسكري الإسلامي في المغرب . ووقع في غضون ذلك تبدل مذهل في موقف البربر، إذ انفجرت قبائل الأوراس بقيادة امرأة غامضة عرفت في المصادر العربية باسم الكاهنة وهي تتحدر من قبيلة جراءة

الزنائية البترية، وقد دانت على ما يبدو، بالعقيدة اليهودية

ونجحت الكاهنة في تحقيق التفاف واسع حول ثورتها من البربر الأوراس ومن بقايا البيزنطيين وهذا ما يفسر احتلالها لمدينة بالغاية الساحلية آخر المعازل المهمة التي احتفظ بها البيزنطيون، ثم راحت تتحدى المسلمين ولم يستطع حسان الذي سارع إلى اعتراض تقدمها في وداي مسكيانة من الوقوف في وجه الحشود الضخمة التي تكتلت وراءها حيث لاقى المسلمون العناء والبلاء حتى أنهم سموا يوم المعركة يوم البلاء». ومما يدل على جسامه الهزيمة أن حساناً ،اضطر تحت ضغط الأحداث العسكرية، إلى التراجع عائداً إلى برقة في ثالث عملية انسحاب للقوات الإسلامية منذ معركة تهودة ونفذت الكاهنة في غضون ذلك استراتيجية جديدة في مواجهة المسلمين قائمة

على التدمير كسلاح خاص ضد استقرارهم وقضى البربر زهاء خمسة أعوام يعملون

في تدمير الأرض وتخريبها وحرق الزرع والضرع). وقد آلت هذه السياسة إلى انفضاض بعض البربر والبيزنطيين عنها خاصة أهل المدن وكبار الملاكين والفلاحين مما كان له أثر في وضع حد لنهايتها . أما حسان فقد بقي في برقة طيلة هذه المدة مترقباً وصول الإمدادات إليه من العاصمة دمشق ليثأر لهزيمته، وفي الوقت نفسه كان يترصد أخبار الكاهنة. ولما علم يتضعع مكانتها استأنف حركة الجهاد.

وقد اقترنت عودته، هذه المرة، بتغيير في موازين القوى والتحالفات السياسية، إذ استقبله السكان البيزنطيون والبربر مستغيثين به من الكاهنة، وقدموا له الأموال والطاعة . واسترد بعض القلاع مثل قابس وقفصة وقسطيلية، ودخل المغرب الأوسط.

وأدركت الكاهنة أنها عاجزة عن مواجهة المسلمين، بعد وصول الإمدادات إليهم وانضمام البيزنطيين والبربر إلى صفوفهم، فأخذت تتراجع موعلة في جبال الأوراس وطاردها حسان مدة عامين إلى أن حصل اللقاء الحاسم معها عند بئر الكاهنة، فانتصر المسلمون على قواتها، وقتلت في المعركة . وبإخماد ثورة الكاهنة، تم القضاء على كل مقاومة، من جانب البربر للحكم

الإسلامي في المغرب. وحصل في غضون ذلك أن حاول البيزنطيون استعادة قرطاجنة بواسطة أسطول بحري واقتحموها في عام (٨٢) هـ (٧٠١ م) إلا أن حساناً أخرجهم منها، وحتى يقضي على آمالهم في العودة إليها، دمرها تدميراً كاملاً، وبنى إلى الشرق منها مدينة إسلامية بدلاً منها هي تونس "

سياسة عبد الملك الإدارية

اهتم عبد الملك بن مروان اهتماماً خاصاً بإدارة شؤون الدولة وقد تمثل ذلك في التحول من دائرة لا تتجاوز آفاق المجتمع القبلي إلى إطار المؤسسات الإدارية. والحقيقة أن عبد الملك لم يكن رائد هذا الإصلاح الإداري في الدولة الإسلامية، ولكنه تابع خطوات كان قد بدأها عمر بن الخطاب في هذا الاتجاه، ثم معاوية بن أبي سفيان في مطلع عهد دولة الخلافة الأموية. لكن شهرة عبد الملك الإدارية مبعثها أن إصلاحاته سارت في اتجاهين تطوير الجهاز الإداري وتنشيطه، وتعريب الإدارة والنقد وهو ما يعرف بحركة التعريب

أ - تطوير الجهاز الإداري

ويبدو أن الدافع لذلك، الظروف السياسية والاضطرابات والحركات المناهضة للحكم الأموي التي شهدتها الدولة، وشلت طاقتها، في أعقاب وفاة يزيد الأول مما انعكس سلباً على الجهاز الإداري فأصيب بالجمود وحدا بعيد الملك إلى إعادة تنشيطه وتنظيمه وتطوير أساليب العمل فيه، بعد أن أدرك أنه لا بد من قيام

إصلاحات إدارية إذا ما أريد استيعاب مشاكل الشعوب التي تألفت منها الدولة ومعالجتها في بالإضافة إلى تحقيق الانسجام في إدارة الدولة، فاتخذت الدولة في ٩٨ / ٢٢٥ مد كثيراً عن أشكال الدول المعاصرة .

هذا وقد توزعت الإدارة في عهده إلى خمسة دواوين رئيسية تولت تصريف

شؤون الحكم وهي ديوان الخراج ديوان الجند، ديوان الرسائل، ديوان الخاتم

وديوان البريد .

ب - حركة التعريب

تعريب الإدارة

الواقع أن المهمة الكبرى التي نفذها عبد الملك بن مروان في حقل الإصلاح الإداري تلك التي أسفرت عن تعريب الإدارة، ومعها النقد كضرورة من الضرورات

الواجب اتخاذها لإرساء قواعد الدولة على أسس متينة قوية، ذلك أن الدولة، منذ عهدها الأولى، لم تلتفت إلى خطة إعداد فئة من الموظفين وتدريبهم لتغطية الفراغ الإداري الذي واجهته بل صببت جهودها على إنشاء جهاز عسكري قوي مكنها من تنفيذ سياسة الفتوح، وقد اضطرت لتأمين أعمال الإدارة، الاستعانة بموظفين غير عرب وغير مسلمين أحياناً من أهل البلاد المفتوحة من الذين سبق لهم أن مارسوا هذا النوع من الأعمال سواء في مناطق النفوذ البيزنطي، أو في مناطق النفوذ الفارسي باستثناء ديوان الجند، الذي بقي محافظاً على طابعه وعمله العربي. وكانت اللغة التي لا تزال أداة الكتابة، وتحرير المعاملات وتسجيل البيانات في دواوين الخراج هي ؟ الموظفين أنفسهم الذين كانوا يجهلون اللغة العربية.

نتيجة اختلاف لغات دواوين الخراج في كل منطقة ظهر اختلاف وتمايز واضح بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة في العراق وفارس عنها في بلاد الشام ومصر مما كان له أثر سلبي على نظام الدولة الاقتصادي وإدارتها المالية . وانطلاقاً. المسلمات أمر عبد الملك عمال الأقاليم في العراق ومصر مهمة تعريب الدواوين في حين تولى بنفسه الإشراف على تنفيذ المهمة في بلاد هذه من

الشام"

وقد استغرقت هذه المهمة عدة سنوات حتى أضحت اللغة العربية، لغة الإدارة الرسمية. وكان طبيعياً أن يعقب تغير لغة الكتابة تغير في أشخاص الموظفين، فنشأت تدريجاً طبقة من الموظفين والكتاب العرب تولت أعباء مما حمله أسلافهم من غير العرب. والواقع أن خطوة التعريب هذه كانت هامة النتائج على الصعيد التالية :

١ - سرعة انتشار اللغة العربية في البلاد المفتوحة. ٢ - إقبال سكان تلك البلاد على اعتناق الدين الإسلامي، خاصة وأن اللغة العربية هي لغة القرآن، وبالتالي للحفاظ على مصالحهم الخاصة.

(٣)

٣ - صبغت الدولة بالصبغة العربية المحضة

(٢) تعريب النقد

جاء قرار تعريب النقد، متوازياً مع قرار تعريب الإدارة، والجدير بالذكر أن عبد الملك سعى إلى توحيد النظام النقدي في سائر أنحاء الدولة، بعد أن تعددت العملات الخاصة المتداولة، إلى جانب تداول عملات فارسية وبيزنطية، في الوقت الذي بلغت فيه الدولة الأموية ذروة تألقها السياسي والحضاري، مما يتعارض مع تطبيق سياسة عربية في كافة وجوه الحياة (. أما الخلاف بينه وبين الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني أو ما يعرف بقضية القراطيس المصرية) فإنه لا يعدو كونه عاملاً مساعداً لهذه العملية. فضرب النقود الذهبية في عام ٧٤ هـ / ٦٩٣ م) كما ضرب الدراهم والدنانير الإسلامية اعتباراً من عام (٨٤ هـ / ٧٠٣م)، وهو أول من ضرب النقود الإسلامية المستقلة .

وأنشأ عبد الملك داراً للضرب جمع فيها الطبايعين، فكان يُضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخالصة المواد الأخرى التي تدخل في عملية الضرب.

وأمر عبد الملك أن يجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله ﷺ أحدهما في وجه الدراهم والدنانير والآخر في الوجه الثاني، وأن يجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها) ... واهتم عبد الملك بمراقبة أوزان هذه الدراهم والدنانير حتى لا يدخلها الغش، ثم

أمر بالتعامل بالنقود الجديدة وهدد كل مخالف بالعقاب بالضرب والجوع والحبس الطويل، ثم بالقتل وهكذا لم تعرف عند المسلمين عملة إسلامية خالصة إلا في عهد عبد الملك الاعتبار حين ضرب النقود، فاتخذ النسبة القديمة والتي أقرها رسول الله ﷺ فأمر أن تضرب الدراهم على وزن عشرة، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل . التخلص من النقود المتضمنة عبارات خاصة بالنصارى كالتثليث .

الذي حقق نتيجة توحيد النقد وتعريبه عدة فوائد منها : مراقبة ومحاربة الغش والزيغ والتميز بين الجيد والرديء مما كان له أثر في إعادة الثقة المالية واستقرار أسعار الحاجيات. إلغاء التفاوت في تقدير الزكاة والصدقات والديّة بفعل أن عبد الملك أخذ بعين

دفعت حركة توحيد النقود وتعريبها دولة الخلافة الأموية خطى واسعة إلى الأمام، وساعدتها الظروف السياسية المؤاتية على تحقيق هذا الغرض . تحقيق المركزية في السلطة بعد أن اشترك في ضرب النقود كثير من الولاة، وبعض المطالبين بالخلافة والعمال الثائرين على الدولة.

تحرر السيادة العربية من أي نفوذ أجنبي تمهيداً للتحرر الاقتصادي. وهكذا نجح عبد الملك في محاولته الجدية وعبر جهود مكثفة في إقامة دولة

جديدة في ملامحها ومقوماتها، متطورة في مؤسساتها، جاءت نتيجة الواقع السياسي والاقتصادي واستجابة لظروف ملكة.

ولاية العهد - وفاة عبد الملك

كان مروان بن الحكم قد ولى عهده عبد الملك ثم عبد العزيز من بعده. وفي عام (٨٥) هـ / ٧٠٤ م) أراد عبد الملك أن يعزل عبد العزيز ويولي مكانه ابنه الوليد، غير أن القدر قد أراحه مشقة ذلك بوفاة عبد العزيز، فعهد إلى ابنه الوليد ثم سليمان من بعده، وكتب بيعته لهما إلى البلدان ليباع الناس وتوفي عبد الملك يوم الخميس في منتصف شوال عام ٨٦ هـ/ أيلول عام

(٧٠٥ م) بدمشق عن عمر يناهز الستين عاماً، وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وشهر أو نصف

الوليد بن عبد الملك (٩٦/٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م)

التعريف بالوليد

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو العباس الأموي وأمه ولادة بنت العباس بن حزن بن الحارث بن زهير العيسي ولد عام (٥٠) هـ / ٦٧٠ م) وهو أكبر أولاد عبد الملك أولاه والده عناية خاصة، فكان يحثه على تعلم العربية وإتقانها بفعل أنه كان لجاناً لا يحسن النحو فجمع عبد الملك جماعة من النحاة عنده، فأقاموا سنة وقيل سنة

أشهر فخرج يوم خرج أجهل مما كان

شب الوليد على الصلاح والتقوى والإكثار من تلاوة القرآن وكان يختمه كل

ثلاث وقيل كل سبع ويقراً في رمضان سبع عشرة ختمة) .

ولأه والده ولاية العهد بعد وفاة عمه عبد العزيز، وبويع له بالخلافة بدمشق في اليوم الذي توفي فيه والده، فلم يدخل منزله حتى صعد المنبر والقى خطبة بين فيها سياسته الداخلية القائمة على اللين لأهل الحق والفضل والشدة على العريب وإقامة شعائر الله، كما أوضح سياسته الخارجية القائمة على استمرار عمليات الفتح والتوسع . ثم نصح الناس باتباع الطاعة ولزوم الجماعة، ولما انتهى من خطبته قام الناس إليه وبايعوه .

الإصلاح الداخلي :

اتسم عهد الوليد بأنه عهد فتح ويسر ورخاء بعد أن استتب الأمن والنظام في الداخل، وأصلحت الإدارة وشؤون الحكم ووضعت القواعد السليمة للأجهزة الحكومية، فاستثمر الوليد ذلك وانصرف إلى الإصلاح الداخلي والتوسع في الخارج. ومما لا شك فيه أن الوليد كان ميالاً للعمارة، لذلك اهتم بإصلاح الطرق وتسهيل السيل، وقد حقق في هذا المضمار أكثر مما حققه سواء فكتب إلى عامله في المدينة عمر بن عبد العزيز بتسهيل الثنايا وحفر الآبار، كما كتب إلى سائر الولاة بذلك . إلا أن أهم إنجازاته الداخلية ما نفذه من توسيع الحرم النبوي والجامع الأموي ..

أما فيما يتعلق بالحرم النبوي فقد أمر عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز بتوسيع بناء المسجد النبوي، وذلك بهدم بيوت أزواج النبي وإدخالها في المسجد وأن يبشّري الدور الواقعة حوله فيزيدها فيه ليتسع ويكون مآلتي ذراع في مثلها، ومن أبي فليقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع إليه ثمنها، وأرسل إليه العمال والبنائين من الشام . ونفذ عمر قرار الخليفة، فأدخل في المسجد جميع حجر أزواج النبي ولم يبق غير حجر عائشة الذي يحوي القبور الثلاثة وكان من رأي أهل المدينة ألا تدخل في المسجد مخافة أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم فيشبهونها بالكعبة. وهدى التفكير عمر أن يثالث جهتها الشمالية حتى تنتهي بزواية بحيث لا يمكن استقبالها، فأضحى شكل الحجرة خمساً، ودخلت بذلك حجرة عائشة في المسجد . وبنى الوليد الجامع الأموي بين أعوام (٦٨٨ هـ / ٧٠٧ - ٧١٥ م) وكان أول من اختطه أبو عبيدة بن الجراح وقد تألق في بنائه حتى ذكر أنه أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين، وجيء بالصناع والفنانين من الهند وفارس والقسطنطينية ومصر والمغرب واستخدم في بنائه اثني عشر ألف عامل، فكان أفخم بناء في بلاد المسلمين لا يضارعه بناء غيره، كما اعتبر آية من آيات الفن العربي

وقد أعجب كل من المهدي والمأمون من الخلفاء العباسيين بهذا الطراز من البناء، فعندما دخل الخليفة العباسي المهدي مدينة دمشق في طريقه إلى بيت المقدس أعجب بمسجدها وقال لكاتبه : سبقنا بنو أمية

بثلاث بهذا المسجد لا أعلم على وجه الأرض مثله، وبنبل الموالي، ويعمر بن عبد العزيز، لا يكون والله فينا مثله أبدا . ولما دخل الخليفة المأمون دمشق ونظر إلى جامعها وكان معه أخوه المعتصم وقاضيه يحيى بن أكثم ، قال : ما أعجب ما فيه فقال أخوه: هذه الأذهاب التي فيي، وقال يحيى الرخام وهذه العقد فقال المأمون: إني إنما أعجب من حسن بنيانه على غير مثال متقدم . وحسن الوليد مدينة دمشق وأوصل الماء إلى كل بيت من البيوت الكبيرة فيها عبر أقيية من نهر بردى.

سياسة الوليد الخارجية

أ- جبهة المشرق

فتح بلاد ما وراء النهر

ما وراء النهر، لفظ استخدمه المؤرخون والجغرافيون المسلمون للتعبير عن المنطقة المحصورة بين نهري جيحون في يخلجنوب وسيحون في الشمال وتقع هذه في الشمال الشرقي من حدود الدولة الفارسية القديمة وسكانها من العنصر التركي قامت في هذه المنطقة، المشار إليها عدة ممالك مستقلة، بعضها عن بعض

أهمها:

- مملكة طخارستان، وتقع على ضفتي نهر جيحون وعاصمتها مدينة بلخ)

مملكة الخنل وقصبتها هليك، وهي أول إمارة وراء نهر جيحون - مملكة صغانيان وقصبتها صغانيان

مملكة الصغد وقصبتها سمر قند

- مملكة خوارزم وقصبتها الجرجانية . كان الوضع السياسي لهذه الممالك مزعزعاً بفعل النزاعات الدائمة التي كانت تنشب بينها مما شكل خطراً على المسلمين الذين تاخمت حدود بلادهم في خراسان حدود هذه الممالك، مما جعلهم يفكرون في وضع حد لحالة الفوضى في هذه البلاد يضمها إلى الدولة الإسلامية ونشر الإسلام فيها وإخضاعها للنظام قبل أن يستفحل خطرهما). وبالرغم من النزاعات الداخلية فيها إلا أن شعوبها يمكن أن تتحالف إذا شعرت بوجود خطر خارجي عليها. كانت العمليات العسكرية في وسط آسيا

على جانب كبير من الأهمية ونتم بنجاح في بلاد ما وراء النهر، حيث حقق القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي حاكم خراسان السيطرة الأموية على هذه البلاد وتمكن من إثبات جدارته بالإمارة والقيادة، بحيث اعتبر من أشهر وأنجح القادة العسكريين، وسانده حاكم قوي هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وكانت أوضاع دولة الخلافة الأموية قد استقرت، فاجتمعت له شجاعة القائد، وعزم الوالي وتصميمه، وقوة الدولة واستقرارها (؟ كانت مهمة قتيبة على شيء من الصعوبة فبالإضافة إلى عمليات الفتح، كان عليه أن يتجنب سياسة يزيد بن المهلب التي أثارت العصبية القبلية، وأن يُنسي العرب خلافاتهم العصبية، بعد تنحية آل المهلب عن حاكمية خراسان.. بدأ قتيبة عملياته العسكرية اعتباراً من عام ٧٠٥ م) فعبر نهر جيحون على رأس جيش كبير، وتمكن بعد سلسلة من الحملات العسكرية الناجحة من إنزال العقاب بجميع الذين انتفضوا على الحكم الإسلامي في عهد الحروب الأهلية وأعاد فتح إقليم طخارستان. وتعتبر هذه الخطوة ضرورية لتمهيد طريق التقدم إلى أقاليم أخرى، ثم عاد إلى مرو، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم ويبدو أن متاعب قتيبة مع أمراء هذا الإقليم لم تنته، خاصة نيزك، وهو أحد الأمراء الذين صالحوا القائد المسلم. لقد استغل نيزك هذا خروج الجيش الإسلامي من المنطقة، فنقض الصلح الذي أبرمه مع المسلمين وكون حلفاً لأمراء طخارستان ضد الوجود الإسلامي، فاضطر قتيبة للعودة إلى طخارستان

- لإخضاعه، وتمكن من القضاء على الحلف الذي شكله ثم قبض عليه وقتله (. تقدم قتيبة بعد ذلك إلى إقليم بخاري فعزاً بيكند في عام (٨٧ هـ / ٧٠٦ م) وفتحها صلحاً بعد حصار . ويبدو أن أهلها لم يكونوا صادقين في صلحهم فاغتموا فرصة انهماك المسلمين بالفتوحات، وثاروا على الحكم الإسلامي وقتلوا الوالي، فاضطر قتيبة للعودة إلى المدينة وفتحها عنوة ثم عاد إلى مرو

- استمرت حملات قتيبة على إقليم بخارى ثلاث سنوات، فكان يغزوه في الصيف ويعود في الشتاء إلى مرو، حتى تمكن أخيراً من فتحه، وثبت أقدام

- المسلمين في مدنه.

- استأنف قتيبة فتوحاته في حوض نهر جيحون، ففتح سمرقند صلحاً في عام

- (٩٠ هـ / ٧٠٩ م)، وهي أعظم المدائن في بلاد الصغد كما فتح مدن خوارزم صلحاً

- أيضاً في عام ٩٣ هـ (٧١٢م) وتوج فتوحاته بإعادة فتح سمرقند، بعد أن نقض

- أهلها الصلح مع المسلمين، وتثبيت أقدام المسلمين فيها

- تكمن أهمية فتح سمرقند أنها ضمت مصنعاً للورق، وهي صناعة صينية نقلتها جماعة من الحرفيين الصينيين إلى هذه المدينة وحمل المسلمون هذه الصناعة إلى دمشق ثم إلى بغداد بعد ذلك في العصر العباسي، وإلى القاهرة وأفريقيا الشمالية

- وصقلية والأندلس، ومنها انتقلت إلى أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي. وانتقل قتيبة اعتباراً من عام ٩٤ هـ / ٧١٣ م)، إلى فتح مدن الشاش وفرغانة وكاشغر، وكانت تحت سيطرة الأتراك، فصادف مقاومة شرسة، واصطدم بهم أكثر من مرة حتى تمكن أخيراً من فتحها في عام (٩٥ هـ / ٧١٤ م) و أثناء جهاده في بلاد الترك جاءه نعي الحجاج ، فاغتم لموته، وأدرك الخليفة تأثير ذلك عليه ، فبعث إليه برسالة مواساة وتشجيع وثناء ، فأحدثت في نفسه أثر أظيماً.ويبدو أن قتيبة أراد تحقيق إنجاز إسلامي على الحدود مع الصين. فغادر مرو في طريقه إلى كاشغر وهي أدنى المدائن إلى الصين، ولما وصلها جاءه رسول من قبل الإمبراطور الصيني يدعوه إلى إرسال وفد إلى العاصمة الصينية للتباحث في أمر تقدم المسلمين. وفعلاً أرسل وقدأ على رأسه هبيرة بن المشمرج، الذي أجرى مباحثات مع الجانب الصيني، أسفرت، على ما يبدو، إلى تجميد الفتوحات الإسلامية باتجاه الصين ١١٠ / ٢٢٥ م، لقد أدرك قتيبة أنه يواجه إمبراطورية قوية تتطلب منه استعدادات وتجهيزات لم تكن متوفرة، مع طول خط الإمدادات وصعوبة الاتصالات مع الإدارة المركزية في الوقت الذي أخذت فيه بعض المدن المفتوحة تنتفض على الحكم الإسلامي مما تطلب إعادة إخضاعها .والراجح أن هذه السفارة الإسلامية إلى البلاط الصيني كانت لأغراض سياسية وتجارية، إذ لم يكن المسلمون بغافلين عن أهمية التجارة بين الشرق والغرب. وجرت عدة محاولات منذ أيام قتيبة لضبط طرق التجارة في أواسط آسيا وحماية القوافل التجارية وبدل تعدد إرسال السفارات الإسلامية إلى الصين، بعد ذلك، على أهمية التجارة بين الشرق والغرب. من أجل ذلك، قنع قتيبة بنتائج من الفتوحات أدنى مما كانت قد خططت له القيادة المركزية. لكن المسلمين بذلوا جهوداً كبيرة ومتواصلة لجذب الناس إلى الدين الإسلامي، فتحول قسم منهم إلى الإسلام لكن بنسبة ضئيلة، في مستهل تاريخ الفتوحات، وغالباً ما كان إسلامهم تغطية لاستغلال فرصة أخرى يكشفون فيها القناع عن وجوههم المعادية

- فتح بلاد السند

-
- يقع إقليم السند في شمالي غربي شبه القارة الهندية وشرقي بلاد فارس الجنوبية. وتعتبر أحداث فتح هذا الإقليم شبيهة بأحداث فتوحات بلاد ما وراء النهر

- من عدة أوجه منها :

- وحدة الزمان: فقد بدأ المسلمون فتوحاتهم في هذا الإقليم عام (هـ / ٧٠٨ م ، أي بعد أن بدأ قتيبة بن مسلم فتوحاته لبلاد ما وراء النهر بعامين اثنين، وإن كانت اهتماماتهم يفتح بلاد الهند ترجع إلى عصر الخلفاء الراشدين. وحدة العالم الإسلامي : لقد تمت فتوحات كل من إقليم ما وراء النهر وإقليم السند في ظل وحدة العالم الإسلامي التي حققها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. وحدة القيادة العامة: فالحجاج بن يوسف الثقفي هو الذي وجه الحملات

- العسكرية إلى كلا الإقليمين، فقد كلف قتيبة بن مسلم بفتح بلاد ما وراء النهر كما كلف

- صهره و ابن عمه محمد بن القاسم بفتح إقليم السند.

- وحدة الإعداد والتجهيز: في ظل القيادة العامة الواحدة". عهد الحجاج إلى ابن عمه محمد بن القاسم، الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من العمر، بفتح إقليم السند، بعد أن أضحي يجاور الحدود الشرقية للدولة الإسلامية،

- وعينه أميراً عليه انتقل محمد هذا إلى مكران وتمركز فيها وجعلها نقطة الانطلاق وقاعدة الفتح، وخرج منها إلى الديبل على ساحل بحر الهند وفتح، وهو في طريقه إليها، عدة قلاع ولما وصل إليها حاصرها واقتحمها بعد ثلاثة أيام، فهرب منها عامل داهر ملك السند أعاد القائد المسلم تخطيط المدينة وأسكنها بأربعة آلاف من المسلمين، وجعلها قاعدة بحرية). وكان لفتح هذه المدينة تأثير كبير على الوضع الداخلي للمدن والقرى المجاورة، حيث هرع السكان يعرضون الصلح على المسلمين توجه محمد بن القاسم، بعد ذلك إلى البيرون، الواقعة على الضفة الغربية لنهر السند المعروف باسم مهران فصالحه أهلها كما صالحه سكان سربيدوس وسهبان فيسدوسان وهي مدن تقع على الضفة الشرقية للنهر ، ثم التقى داهر في مدينة مهران وانتصر عليه وقتله سيطر المسلمون بعد هذا النشاط الجهادي على كامل إقليم السند

ثم زحفت جيوشهم نحو الشمال الشرقي حتى وصلوا إلى مدينة برهمناباد وقد لجأت إليها فلول جيش داهر بقيادة ابنه جاي سنك، فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم وفتحوا المدينة عنوة). وفرَّ جاي سنك إلى الشمال وتحصن بالرور عاصمة السند، فلحقه المسلمون وحاصروا المدينة مدة أربعة أشهر قبل أن يفتحوها . وتابع القائد المسلم زحفه حتى قطع نهر بياس، أحد روافد نهر السند، ووصل إلى الملتان فحاصرها وفتحها عنوة، وأرسل فرقة عسكرية دخلت البيلمان وصالحه أهل سرست، وفتح الكيرج عنوة). أضحى وادي السند، بعد هذا الانتشار الإسلامي، في قبضة المسلمين فانصرف محمد بن القاسم إلى تنظيم أمور البلاد المفتوحة والاستعداد للزحف نحو إمارة كتوج لكن أناه نعي الحجاج ثم نعي الوليد في

الجبهة البيزنطية

انتهج الوليد نهج والده في الضغط على الامبراطورية البيزنطية . والواقع أنه في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور البيزنطي يخشى اتساع النشاط العسكري الإسلامي في البر والبحر ، كان الخليفة يعمل على تحقيق الهدف الذي ظل يراود الخلفاء الأمويين منذ تأسيس دولتهم ، ألا وهو فتح القسطنطينية ، خاصة وأن الامكانيات الإسلامية أضحت متاحة بعد تقوية الأسطول البحري ، وتنسيق التعاون بين القوتين البرية والبحرية ، في حين افتقد الجانب البيزنطي إلى الاستقرار ، وتدهورت قوتة العسكرية وساد الوضع الداخلي الصراع على العرش مما خلق مناخاً طيباً للعمليات الحربية(١) . وقاد حركة الجهاد الإسلامي ،على هذه الجبهة القائد الأموي مسلمة بن عبد الملك ، اخو الخليفة الوليد ، بمشاركة العباس بن الوليد ، وتمكن من فتح عدة حصون وهرقلة ، والحصون الخمسة التي تلي الحدود البيزنطية مع بلاد الشام ، وعمورية ودوريليوم وسبسطية وطرسوس وبرجمة (٢) ، ووصلت إحدى فرقته إلى مدينة سكودري في عمق الأراضي البيزنطية (٣) .

نتيجة لهذا النشاط العسكري الإسلامي المكثف ، حاول البيزنطيون إيقافه أو الحد من قوة اندفاعه ، فعمدوا إلى تقوية جبهة آسيا الصغرى ، فعمروا مدنها وشحنوها بجماعات من الأرمن ، وعينوا قادة جددا على ثغورها ، خاصة ثغر الأناضول، واهتموا اهتماماً خاصاً بتقوية القوى الحربية، وعملوا على توفير أسباب الدفاع عن العاصمة(١). وشهد عام (٩٦ هـ / ٧١٥ م) تطوراً جديداً في الأحداث. ففي دمشق تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك خلفاً لأخيه الوليد ، وفي بيزنطية اختير ثيودوسيوس الثالث إمبراطوراً. لكن أهداف كل من الدولتين لم تتغير، فتابع كل عاهل خطوات سلفه.

ج . جبهة شمالي أفريقيا

لقد بلغ المد التوسيعي على هذه الجبهة ذروته في عهد الوليد بن عبد الملك أحد أكثر الخلفاء الأمويين تشجيعاً لهذا الاتجاه . وكان لديه من الظروف المساعدة مادفعه إلى اعطاء السياسة الخارجية اهتماماً خاصاً. ومن الطبيعي أن استقرار الوضع الداخلي أوجد المناخ الملائم لتحقيق منجزات عسكرية على عدة جبهات في وقت واحد، وكانت أعظم إنجازات تلك السياسة التوسعية، هي استكمال فتوح شمال أفريقيا، والفتح الكبير لإسبانيا. أوضحنا من قبل، جهود حسان بن نعمان في تطهير منطقة المغرب من النفوذ البيزنطي، والقضاء على ثورة البربر الثانية. والواقع أنه لن يكف هذا القائد ينتهي من المشاكل الخارجية، ويتفرغ لمعالجة الشؤون الداخلية الإدارية لأمارته حتى تم استبداله بفائد آخر هو موسى بن نصير، وذلك في عام (٨٥ هـ / ٧٠٤ م) وإن كان تنفيذ المهمة قد تم في وقت متأخر من عهد عبد الملك، أو في مطلع عهد الوليد . وقد ارفق القائد الجديد أولادة الأربعة وهم مفطورون على التربية العسكرية (٢). وقد بدأت بتعيينه المرحلة السابعة والأخيرة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا. لم تكن مهمة موسى بن نصير على شيء من الصعوبة، فقد اهتم أو لا بتدعيم مركز القيروان العسكري، ثم راح يثبت دعائم النصر الذي حققه سلفه في المغربين الأدنى والأوسط. استهل أعماله في (أواخر عام ٨٥ هـ / وأوائل عام ٨٦ هـ / ٧٠٤ - ٧٠٥ م) بفتح قلعة زغوان، وتقع في منطقة جبلية بين القيروان وتونس، ثم غزا صنهاجة وسجومة في شمالي المغرب الأقصى وفتح هذه الأخيرة(١)، وأرسل أولاده في كل اتجاه لتثبيت أقدام المسلمين في المناطق المفتوحة.

والواقع أن فتح سجومة كان أمراً على جانب كبير من الأهمية فهذه البلدة التي كانت في الغالب قاعدة لجزء كبير من قبيلة أوربا، قبيلة كسيلة، كانت في الوقت نفسه، مفتاح الطريق إلى سبتة وطنجة، التي فتحها المسلمون عقب ذلك مباشرة(٢)، وجعلوها قاعدة ولاية جديدة سميت بولاية طنجة أو المغرب الأقصى.

واستكمل موسى بن نصير، بعد ذلك، إخضاع البلاد إلى الجنوب من جبال الأطلس، فسيطر على المغرب الأوسط سيطرة تامة وطارد المتمردين من البربر حتى إقليم السوس الأقصى في عمق المغرب. وقرر النصر الإسلامي مستقبل البربر الذين تحولوا إلى الإسلام، ودخلوا في الجيوش العربية، كجنود محاربين، وقُدِّر لبعضهم أن يصبح أكثر حماسة للإسلام من العرب أنفسهم، وهذا التحول الذي طرأ على وضعهم كانت آثار إيجابية في فتح الأندلس بعد ذلك لأن معظم قبائل البربر أخذت، بعد اعتناقها الإسلام، وتتوق إلى الحرب والجهاد. وقد أدرك موسى بن نصير هذه النزعة فأستغلها بتوجيههم إلى الفتوحات الخارجية، ولم يكن أمامه في هذه الحالة سوى عبور المضيق لتحقيق هذا الغرض.

لم تقتصر غزوات موسى بن نصير على المناطق البرية في المغرب، وإنما قام بنشاط بحري استهدف الجزر القريبة من شاطئ المغرب لم يكن هدفها الاستقرار بقدر ما كانت الحملات استطلاعية والحصول على المغام والأسلاب. إنما نتج عنها شلُّ حركة الأساطيل البيزنطية في البحر الأبيض المتوسط التي كانت تشكل خطراً مباشراً، وتهديداً مستمراً لوجود المسلمين في أفريقيا. فغزا موسى في عام (٨٦ هـ / ٧٠٥ م) جزيرة صقلية، وغنم غنائم كثيرة. كما غزا قائدة عياش بن أخيل سرقوسة، وغزا عبدالله بن مرة جزيرة سردينيا(١).

فتح الأندلس

أحوال الأندلس قبل الفتح

١- الحالة السياسية

كان فتح إسبانيا (٢) متصلاً في كثير من جوانبه بسياسة الفتوحات في المغرب، وأن الأسباب التي دفعت المسلمين إلى عبور المضيق تتصل مباشرة بالظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي عاشتها إسبانيا قبل الفتح.

ظلت إسبانيا تحت حكم الرومان مدة سبعة قرون ، وهي تؤلف جزءاً من الممتلكات الرومانية، إلى ان أغارت عليها قبائل الوندال الجرمانية في القرن الخامس الميلادي، واستقرت في السهل الجنوبي، وأعطت المنطقة اسمها فاندلوسيا(٣).

ثم حدث أن أغارت قبائل القوط الغربيين على إسبانيا، في القرن السادس الميلادي، وطردوا الوندال إلى أفريقيا، وأنشأوا لهم دولة عاصمتها طليطلة. ووضعوا لدولتهم الجديدة هذه نظاماً وقوانين خاصة بهم كانت متأثرة بروح النظم والحضارة الرومانية ، كما اعتنقوا المسيحية، واستمر حكمهم للأندلس حتى الفتح الإسلامي(١).

كانت الاوضاع السياسية الداخلية، قبيل دخول المسلمين ، متدهورة ، سادها الاضطراب بفعل الصراع على العرش ، بعد وفاة الملك غيطة في عام (٧٠٨ هـ / ١٣٠٨) بين ابنه أخيلا وبين لذريق ، احد قادة الجيش ، الذي تمكن من إعتلاء العرش بمساعدة النبلاء ورجال الدين (٢)، الامر الذي أدى الى انقسام حاد في البلاد بين مؤيد للملك الجديد ومعارض له، وبالتالي فقدان الوحدة السياسية والنظام ، مما جعل البلاد أرضاً سهلة الفتح أمام المسلمين وحملتهم على التفكير بالعبور الى إسبانيا.

يضاف إلى هذا العامل السياسي عامل جغرافي الذي جمع بين شاطئ المضيق من حيث البيئة، بفعل أن إسبانيا أكثر انفتاحاً على المغرب مع وجود حاجز جبال الپيرينييه، فضلاً عن العامل التاريخي، الذي وحد هذين الإقليمين لعدة قرون خلت.

٢- الحالة الاجتماعية

كانت الحالة الاجتماعية في إسبانيا، عندما فتحها القوط ، في غاية السوء. فقد وُجدت في المجتمع الاسباني، آنذاك، مجموعة صغيرة من الأسر النبيلة تملك الإقطاعات الكبيرة التي يعمل في فلاحتها آلاف المزارعين من الأرقاء والعبيد الذين ألفوا طبقة الدنيا ، ذات جذور اللاتينية. كما انتشرت في البلاد أعمال السلب والنهب من قبل جماعات خارجة على القانون تجوب أنحاء القرى .

وإزداد الوضع الاجتماعي سوءاً تحت الحكم القوط بفعل استمرار حالة الانقسام في المجتمع الإسباني، وسيطرة طبقات المجتمع بعضها على بعض سيطرة تامة. ووجدت في المجتمع الإسباني آنذاك عدة طبقات اجتماعية كان أهمها :

طبقة النبلاء : إنهم الأمراء القوط وعلى رأسهم الملك الذي مثّل رأس النظام القوطي . كان أفراد هذه الطبقة قليلي العدد وشكلوا طبقة أرستقراطية حاكمة ، فنعموا بامتلاك الإقطاعات والضياع الواسعة وفقدان الانسجام الحضاري بينهم وبين السكان الأصليين. ومن الواضح أن هذا الاختلال قد أوجد نوعاً من التناظر بين الطرفين. وفشلت هذه الطبقة الحاكمة في خلق مجتمع متجانس وطني الأنتماء.

طبقة رجال الدين : استغل رجال الدين مركزهم الديني المتميز فاستمتعوا بأكبر قسط من النفوذ والسلطان، فامتلكوا الأراضي الواسعة والقصور الرائعة الحافلة بالعبيد، وأضحوا على درجة عالية من الثراء وتناسوا المثل العليا التي نادوا بها حين كانوا فقراء(١) وقد ساعدهم على بلوغها تدني القوط وسيطرة الدين في العصور الوسطى، على كل شي .

تمتع الرهبان بمركز مرموق لدى الحكام، مما جعل لهم تأثيراً مكنهم من توجيه القوانين والنظم، وصياغة الحياة العقلية والاجتماعية وفقاً لاتجاه الكنيسة وغاياتها

. طبقة الوسطى : وتتألف من صغار الملاك، كانت قليلة العدد، مثقلة بالضرائب، يقع عليها عبء الإنفاق على الدولة، مما أدى إلى ضعفها وإفلاسها ، وأصيبت بالبؤس والشقاء (٢) .

. طبقة الشعب الدنيا : تكونت هذه الطبقة من المزارعين والعبيد الذين كانوا شبه ارقاء، مرتبطون بالأرض وألحقوا بالضياع ، وللسيد عليهم حق الحياة أو الموت . وقد رزحت هذه الطبقة تحت شقاء الحياة وبؤسها وسلبت كل الحقوق المدنية. وتعتبرها هذه أكثر عدداً من الطبقات الأخرى وأقل حقوقاً(٣).

اليهود : ووجدت في المجتمع الإسباني طائفة كثيرة العدد من اليهود عمل أفرادها في الصيرفة والأمور المالية، والحباية في دوائر الحكومة ، الا أنهم كانوا مكروهين بسبب اختلاف عقيدتهم وتعاطيهم الربا ، وأرهقوا بالضرائب، فلم ينعموا بالحياة الهادئة، وعانوا أبشع ألوان الجور والاضطهاد من الدولة والكنيسة معاً. نتيجة لهذا الضغط قام اليهود بعدة محاولات فاشلة لقلب نظام الحكم عن طريق الثورة حيناً، وعن طريق المؤامرات أحياناً إلى أن قرروا أخيراً الاستعانة بالمسلمين

الحالة الدينية

كان الشعب الإسباني، بأستثناء اليهود يدين بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي، الذي فرضه رجال الدين ، وحرمو انتشا أي مذهب آخر. فسيطروا بنفوذهم الروحي على الشعب ، الذي حرم عليه أن يتطرق إلى ذهنه أي شك في الكنيسة الكاثوليكية ، والنظم الانجيلية ، والتفاسير والآبا الروحيين والمراسم الكنيسة والقربان وغيرها من الطقوس المسيحية ذات المذهب الكاثوليكي، وقد كسب رجال الدين عطفاً متزايداً سمح لهم بالتدخل في شؤون الدولة، فكان الأساقفة وكبار رجال الدين يحظرون المجالس الوطنية التي كانت تنظر في الشؤون العامة للدولة ، ويصادقون على انتخاب الملك، وادّعت هذه الفئة لنفسها الحق في عزلة إذا أبى الإذعان لقراراتها، وهكذا نرى مما تقدم أن اسبانيا فقدت وحدتها السياسية وفسدت حياتها الاجتماعية وانطوت في عزلة دينية متمزعة في الوقت الذي ظهرت فيه على الجانب الآخر من المضيق قوة إسلامية متماسكة ومندفعة تتربص بفرص للتدخل.

عمليات الفتح

كانت مدينة سبته تابعة ، من الناحية النظرية، والبيزنطية، الا أن هذه الأخيرة فقدت تأثيرها الفعلي على هذا الجزء من الشمال الإفريقي، بفعل بُعد عن مركز العاصمة، الامر الذي جعل حاكمها يوليان مستقلاً على الشريط الساحلي الممتد بين طنجة وسبته، ويتوجه في وقت الشدة إلى مملكة إسبانيا لحمايتها (٢)،

ويبدو أن يوليان هذا، كان يملك بعض الإقطاعات في جنوبي إسبانيا، وهو على صلات حسنة مع حكام البلاد السابقين آل غيطشة، وتحالف مع أخيل، المطالب بالعرش الإسباني، للتخلص من حكم لذريق، كما كان رسول آل غيطشة إلى المسلمين(٣).

ولما تاخم المسلمون حدود بلاده وجد في قوتهم خير من يساعده في تحقيق هدفه، كما أراد أن يقدم خدمة جليلة لهم بعد أن أضحو أسياد المنطقة. فقرر أن يؤدي دور الوسيط في تشجيعهم على العبور إلى إسبانيا، وظهر كحلقة اتصال بينهم وبين النصارى الملك لذريق. فأتصل من أجل ذلك بطارق بن زياد في طنجة وكلمه في غزو إسبانيا مقترحاً عليه العبور إليها، وبين له حسناتها وفضلها وما تحويه من الخيرات وهون عليه حال رجلها ووصفهم بالضعف. وبادر طارق بالاتصال بموسى بن نصير وكان مقيماً بالقيروان، وأبلغه بما عرضه عليه يوليان لأخذ القرار بهذا الشأن. والواقع أنه لم يكن لدى موسى بن نصير ما يدعوه إلى رفض هذه الفكرة، ذلك أن الأمر قد يتطور إلى صورة فتح الإسلامي شامل لهذا البلد يدخله في دائرة الدولة العربية الإسلامية(٢). إلا أن عملاً ضخماً من هذا النوع، لا بد وأن ينال موافقة الخلافة في دمشق، لذلك كتب موسى إلى الخليفة الوليد يبلغه بما عرضه يوليان ويستأذنه في العبور. تردد الوليد في بادئ الأمر خشية على المسلمين من أن يُعزّر بهم، وأمر موسى بأن يتروى في الأمر، وأن يختبر البلاد بالسرايا(٣)، والحقيقة أن فتح المسلمين لإسبانيا كان نتيجة خطة موضوعة نوقشت بين الخليفة وقائده، وأقرها الأول، ويبدو أنه كان لسياسة الدولة الإسلامية العامة وعلاقتها بالبيزنطيين وتأثير الحملة على هذه العلاقات خاصة في مجال البحري، والسيطرة على الجزر في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، تأثير على قرار الخليفة(٤). وبعد نضوج الظروف التي هيأت للمسلمين انتصاراً آخر، وتنفيذاً لأوامر الخليفة، أرسل موسى أحد ضباطه ويدعى طريف بن مالك المعافري، وهو من البربر، على رأس قوة عسكرية تقدر بأربعمئة رجل ومائة فارس، في مهمة استطلاعية، وأمره بالقيام بالغارة على ساحل إسبانيا الجنوبي وكان ذلك في عام (٩١هـ / ٧١٠ م) (٥).

نزل طريف وجنوده في جزيرة بالوماس، وأغار على المناطق التي تليها إلى جهة الجزيرة الخضراء وأصاب سبباً كثيراً وعاد محملاً بالغنائم، واقنعتة هذه الحملة بضعف وسائل الدفاع الإسباني، شجع نجاح طريف موسى بن نصير، فأرسل، في شهر رمضان عام (٩٢هـ / شهر حزيران عام ٧١١م) قوة عسكرية قوامها سبعة آلاف مقاتل تألفت غالبيتها من البربر، بقيادة طارق بن زياد نائبه على طنجة(٣). عبر طارق المضيق، ونزل تجاه الجزيرة الخضراء عند صخرة الأسد، وسيطر على جبل بعد أن اصطدم بالحامية القوطية، وقد حمل الجبل منذ ذلك الوقت اسمه، فدعى بـ((مضيق جبل طارق)) (٤). أقام القائد المسلم عدة أيام في قاعدة الجبل، نظم خلالها جيشه، وأعد خطة لفتح القلاع القريبة، والتوغل في عمق

إسبانيا، ونجح في فتح بعض القلاع والمدن منها قرطاجة والجزيرة الخضراء (٥)، ثم تقدم باتجاه الغرب حتى يبلغ بحيرة خنده جنوبي غربي إسبانيا التي يقطعها نهر برياط عبر وادي لكة الشهير، وعسكر هناك. وعلم بواسطة جواسيسه بأنباء حشود الضخمة التي حشدتها لذريق (٦) الذي تقدم باتجاه القوات الإسلامية، وعسكر على الضفة المقابلة للنهر. وبدا الفرق بين القوتين كبيراً مما دفع طارق إلى طلب النجدة من موسى بن نصير، الذي كان يراقب باهتمام أخبار الحملة من الساحل الإفريقي. فأمدّه بخمسة آلاف مقاتل، والتقى الجيشان الإسلامي والقوطي عند وادي لكة من كورة شذونة، على بُعد أميال إلى الشرق من قادش، وجرت بينهما معركة طاحنة انتهت بانتصار المسلمين، وتم القضاء على الجيش القوطي ومعه الملك، وفتح هذا الانتصار أمام المسلمين باباً واسعاً للولوج منه إلى عمق إسبانيا. وباستثناء معركة إستجة، التي خاضتها فلول الجيش القوطي، فإن المسلمين لم يصطدموا بأية مقاومة جدية، وهكذا سقطت قرطبة، الواقعة على نهر الوادي الكبير، ومالقة والبييرة واريولتوطليظة، العاصمة القوطية الشهيرة. وطارد المسلمون فلول الهاربين باتجاه الشمال الغربي قبل أن يعودوا إلى طليظلة في خريف عام (٧١٢/هـ٩٣م).

وبذلك انتهت هذه المرحلة من عملية فتح إسبانيا بنجاح كبير. كتب طارق إلى موسى يخبره بما أصاب من انتصارات وما فتحه من مدن، فرد عليه يأمره بالألا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، ويبدو أنه أدرك خطر الانتشار الواسع للمسلمين في بلاد جبلية وعرة لا يزال معظمها مجهولاً لديهم، فأراد أن يعزز بوجوده الموقع العسكري للمسلمين، أو ربما شجعت الانتصارات على الانتقال إلى تلك البلاد للوقوف شخصياً على أوضاعها ومراقبة سير العمليات العسكرية عن كثب، خاصة بعد الانتشار العسكري، الذي امتد إلى مختلف الجهات، وتدفق القوات الإسلامية الإضافية على إسبانيا بعد سقوط طليظلة، الأمر الذي دفعه لأن يكون على أرض المعركة، ويتخذ قراراته الحاسمة في الوقت الملائم. لكن الراجح، أن موسى إنما أراد أن يطبق على البلاد منفذاً بذلك خطة استراتيجية محكمة، وموضوعة مسبقاً، تشبه حركة الكماشة في المصطلح الحربي الحديث، بدليل أنه سلك، أثناء توغله في إسبانيا، طريقاً أخرى مقابلة للطريق التي سلكها طارق كما سنرى. ومهما يكن من أمر، فقد أفلح موسى بن نصير في شهر رمضان عام (٧١٢/هـ٩٣م) إلى الجزيرة الخضراء على رأس قوة عسكرية تقدر بثمانية عشر ألف مقاتل، واستخلف ابنه عبدالله على القيروان (٣). ولما دخل إسبانيا سار في طريق غربي الطريق التي سلكها طارق، وفتح مدناً أخرى مثل قرمونة ثم مضى إلى اشبيلية في الشمال الغربي، وكانت الهدف الرئيسي في حملته ففتحها في عام (٧١٣/هـ٩٤م) بعد الحصار، وصالحته مدينة ماردة (١)، وامتدت فتوحاته إلى برشلونة شرقاً و اربونا في الجوف وقادش في الجنوب و جيليقية في الشمال الغربي. ولما اقترب من طليظلة خرج طارق

بن زياد لاستقباله في طليبة التي شهدت مجلساً عسكرياً لتقييم ما تم إنجازه من خطة الفتح وما سيتم فتحه في المستقبل .

وتذكر الروايات التاريخية أنه حصل خلاف بين الرجلين ، وتبالغ المصادر فترجع أمر الخلاف إلى حسد دبّ في نفس موسى على مولاه طارق بفعل ماحققه من نجاح. وتتسبب هذه الروايات إلى موسى أنه أهان طارق وضربه بالسوط، و وبخه على استبداده برأية، وطالبه بالأموال والنفائس التي استولى عليها، والراجح أن هذه الروايات مبالغ فيها، وتتنظر إلى هذا المشروع الضخم من زاوية شخصية ضيقة. ومما لا شك فيه أن كلاً من القائدين قد اهتم بمصلحة المسلمين العليا، وسلامة أرواحهم قبل أي شيء آخر. وواضح من الخطة الموضوعة للفتح والتي نفذت على الأرض، أن الرجلين كانا متفقين على الالتقاء في العاصمة القوطية(٤). ومهما يكن من أمر ذلك، فنحن لا نستبعد إمكانية حصول تباين في وجهات النظر بين الرجلين على بعض الأمور، والخطط، مثل اندفاع طارق وسط إسبانيا دون تأمين ظهره، إلا انهما كانا متفقين على خطة إتمام الفتح ، بدليل تجديد موسى لطارق إمرة الجيش واشتراكهما معاً في حملة عسكرية استهدفت مدينة سرقسطة في إقليم أراغون ففتحها ، كما فتحا برشلونة، ثم افترقا فسار موسى نحو الشمال مخترقاً جبال البرينيه، فغزا ولاية سبتمانيا، وفتح قرثونونارون، وغزا وادي الرون في بلاد الفرنجة ووصل إلى مدينة ليون، في حين اجتاز طارق وادي الأبرو، وغزا جيليقية(٥). في هذه الاثناء تلقى كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد أمراً من الخليفة بوقف العمليات العسكرية والعودة فوراً إلى دمشق، وعين الأول، قبل مغادرتة، ابنه عبد العزيز حاكماً على الأندلس نيابة عنه .

أثر فتح الأندلس

مما لا شك فيه أن الفتح الإسلامي للأندلس كانت له نتائج بالغة الأهمية لعل أهمها :

لقد غير هذا الفتح أوضاع السكان بشكل عام. إذ بعد زوال الحكم القوطي، تجمع زعماء القوط في منطقة جيليقية في الشمال الغربي، وقد آلت ممتلكاتهم وأموالهم إلى المسلمين، وابقى المسلمون على الذين ساعدوهم، فأعيدو بوليان إلى حكم سبته، ورُدت إلى أولاد أخيلأ أموالهم وممتلكاتهم وضياعهم، كما سمح لبعض النبلاء والإقطاعيين، في بعض المناطق بالاحتفاظ بأراضيهم، اما الأراضي التي تركها اصحابها بفعل الفرار أو القتل في المعارك، فقد صاردها المسلمون، وجرى توزيعها عليهم. أحسن المسلمون معاملة أهل البلاد الذين تعرضوا للاضطهاد في العهد القوطي، فسمح للمزارعين أن يمارسوا حياتهم الزراعية على حسابهم، على أن يودوا الخراج(٣). وسارع الكثير من رقيق الأرض والعبيد إلى اعتناق الإسلام عندما وجدوا فيه التسامح الذي كانوا ينشدونه، و دان بالإسلام عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا عن إيمان ثابتسمح المسلمون لليهود، الذين أعانوهم في عملية الفتح، بمزاولة التجارة وأموثوهم على انفسهم وأموالهم

وأولادهم، ومنحهم حرية التملك، وعمل الكثير منهم في العلوم والآداب والطب والفلسفة، فكانوا أكثر الطوائف استفادة من الفتح ترك الفتح الإسلامي للأندلس بعض النتائج الكبيرة من ناحية الاجتماعية، حيث أدت مصادرة ممتلكات كثير من النبلاء، بالإضافة إلى ممتلكات الكنيسة، إلى زيادة عدد صغار المزارعين ملحوظة.

كان الفتح الإسلامي خيراً على إسبانيا، فقد أحدث ثورة اجتماعية، وقضى على مساوئ العهد القوطي التي كانت البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون

ولاية العهد - وفاة الوليد

أراد الوليد أن يؤدي الدور نفسه الذي اداه والده عبد الملك من قبل، وذلك بعزل أخيه سليمان، وتولية ابنه عبدالعزيز العهد، فدعا الناس الى ذلك فلم يجبه أحد إلا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وبعض خواصه، وأشار عليه أعوانه بأن يستدعي سليمان ويجبره على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز، وفعلاً عزم الوليد على تنفيذ ذلك لكن المنية وافته فتوقف المشروع، توفي الوليد بن عبد الملك في (شهر جمادى الآخرة عام ٩٦هـ / شهر شباط عام ٧١٥) بدير مروان بعد أن مكث في الحكم تسع سنين وثمانية أشهر، وكانت سنة عند وفاته ستاً وأربعين سنة وكان له من الاولاد تسعة عشر.

سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م)

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عمر شمس القرشي الأموي أبو أيوب وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العباسية ولد ٥٤هـ ٦٧٤م في المدينة ونشأ في الشام، وأحب البادية والإقامة فيها، فبي فيه قصراً كان ينزل فيه، وهو أفضل أولاد عبد الملك كان سليمان ديناً فصيحاً مفوهماً عادلاً محباً للغزو، وقد أنقذ الجيش الحصر القسطنطينية، وتدل خطبته التي أدلى بها يوم اعتلائه الخلافة على ورع وتقوى وخوف من الله على الرغم مما اتصف به من حب العظمة والتفوق روى الحديث عن أبيه تر جده عن عائشة أم المؤمنين في حادثة الإفك .

كان سليمان من أكبر أعوان أخيه الوليد، فكان له كالوزير والمشير واستحثه على بناء مسجد دمشق ولي فلسطين لأخيه، وكان لا يزال واليها حين توفي الوليد، فأخذت له البيعة في دمشق وكان بالرملة، وقد تولى هذا الأمر ابن عمه عمر بن عبد العزيز، وقد اتخذه مستشاراً ووزيراً بعد ذلك .

سياسة سليمان الداخلية :

استهل سليمان عهده بعزل بعض ولاة الوليد كان من بينهم محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وموسى بن نصير، والجدير بالذكر أن الحجاج كان قد توفي قبل أن يتولى سليمان الخلافة، وعين الخليفة الجديد ولاة جدداً على الأقاليم والراجح أن فكرة تغيير عمال الحجاج جاءت بتأثير من عمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حيوة. وقد أساء بعض المؤرخين استيعاب هذه الفكرة وصوروها على أنها سياسة عاطفية، لا تقييم وزناً لمصلحة الأمة، فاتهموا سليمان بأنه عزل ولاة الحجاج ونكل بهم انتقاماً منهم ومن الحجاج لا لشيء إلا لأن هذا الأخير وولاته كانوا قد أيدوا اخاه الوليد عندما أراد أن يعزله عن ولاية العهد وأن يولي ابنه عبد العزيز. وهذه نظرة ضيقة للأمر، وسطحية، وبعيدة عن الواقع تماماً، فالأمر لم يكن أمر عواطف وانتقاماً شخصياً بل أعرق من ذلك بكثير، وإنما هي سياسة عامة للدولة رسمها سليمان بالتعاون والتشاور مع كبار مستشاريه. وجاء هذا التغيير نتيجة تبدل الظروف السياسية، بعد أن عم الهدوء والسلام والاستقرار أرجاء الدولة، خاصة بعد اتساع الفتوحات، فكان من الحكمة أن يتغير أسلوب الحجاج في الإدارة والحكم، وأن يستجيب الخليفة لتلك الرغبة العامة لدى غالبية المسلمين ويُعتبر تصرفاً طبيعياً في وقت تغير فيه رأس الحكم ووصفه سليمان بأنه تثبيت لسلطانه بحيث يضمن عناصر تسانده و تدعمه.

وعمد الخليفة إلى إطلاق سراح آلاف المسلمين المعارضين للحكم الأموي من السجون، خاصة الموالي، وأشركهم في الجيش الإسلامي وضاعف العطاء حتى بلغ صيب الفرد كل شهر نحواً من ٢٥ درهماً وتوقف عن مقاومة الهجرة بالأساليب

العنيفة التي ظهرت في عصر الحجاج، وبدأ يخفف من وطأة الظاهرة الاقتصادية ولعل هذه السياسة كانت السبب في رضاء المسلمين عامة عن سليمان وثنائهم عليه .

وكانت نهاية قادة الفتح محزنة حقاً؛ فقد قتل محمد بن القاسم على يد صالح بن عبد الرحمن عامل الخراج على العراق، بفعل أحقاد شخصية على الأرجح، ولم يثبت أن الخليفة أمر بقتله. وذهب قتيبة بن مسلم ضحية تسرعه، حين شك في نوايا سليمان تجاهه، فخلعه وأعلن العصيان قبل أن يتيقن من حقيقة الأمر، فعارضه أتباعه وقتلوه، والجدير بالذكر أن الخليفة أبقاه في حاكمية خراسان.

أما موسى بن نصير، فقد وضع في الإقامة الجبرية، بعد أن قدم كشافاً بأعماله وتبين أنه ارتكب بعض المخالفات، فعتب عليه الخليفة، لكن ضمه إلى مستشاريه واصطحبه معه إلى الحج في عام (٩٧ هـ/٧١٦م) ومات في المدينة وقيل في وادي القرى.

سياسة سليمان الخارجية

أ- جبهة المشرق

لم تحدث فتوحات إسلامية جديدة في جبهة المشرق بعد وفاة كل من محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم، وذلك لأن الظروف السياسية التي مرت بها دولة الخلافة الأموية منذ هذا التاريخ أي بعد عام (٩٨ هـ / ٧١٧ م) وحتى سقوطها عام (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) ، لم تكن تسمح بذلك. فقد انشغلت بإخماد الحركات التي بدأت تهب في وجهها من جديد مثل حركات الخوارج وحركة يزيد بن المهلب كما الخلافات تجددت بين العرب في خراسان وقد استغلها العباسيون لصالحهم حيث

بدأت دعوتهم السرية كما أن التناحر قد احتدم بين أفراد البيت الأموي مما أضعف هيبة الدولة، بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه البلاد الشرقية التي فتحها المسلمون، لم تكف عن التمرد والعصيان وإشعال نار الثورات حتى أضحي جهد الخلفاء والولاة منصباً على إخضاع الثائرين .

لكن الواضح أنه بالرغم من أن الأمويين في هذه المرحلة، لم يتمكنوا من إضافة أي جديد يُذكر على فتوحاتهم، إلا أنهم استطاعوا المحافظة على المكتسبات التي تحققت، وبدلوا قسارى جهدهم في تثبيت أقدام المسلمين في الأقاليم الشرقية .

ب - الجبهة البيزنطية

كان الحدث الكبير الذي شهده عهد سليمان على هذه الجبهة هو حصار القسطنطينية، إذ لم يكن هذا الخليفة بأقل رغبة من أخيه الوليد في فتحها، وكاس كثيراً من جهوده في الإعداد للزحف عليها، واستمر في الوقت نفسه بإرسال الحملات الغزو أراضي البيزنطيين في مناطق الحدود في آسيا الصغرى، وعلى الطرق المؤدية إليها بهدف إلهاء السلطات البيزنطية، والتمويه على الهدف الرئيس .

ففي عام (٩٦ هـ / ٧١٥ م) فتح المسلمون حصن الحدود، وفي العام التالي فتحوا حصن المرأة) ، ثم مهد الخليفة لحملة الكبرى بغزوة بحرية بقيادة عمر بن هيرة الفزاري . وأشرف الخليفة بنفسه على استعدادات الحملة واختار لقيادتها أخاه مسلمة الذي يُعتبر من ألمع القادة العسكريين المسلمين وصاحب فكرة مهاجمة القسطنطينية مباشرة دون التمهيد بفتح المدن والمعازل المؤدية إليها وتمصيرها وقد تماس هذا القائد على قتال البيزنطيين وعرف أرضهم وأساليبيهم في حين تولى قيادة

الأسطول الإسلامي أمير البحر سليمان وأخذ مسلمة كافة الاحتياطات التي تكفل النجاح لحملة، من حيث العتاد

والمؤن والأخشاب اللازمة لإقامة بيوت تقي المسلمين برد الشتاء وقد حشد الخليفة تحت قيادته قوات بلغت ١٨٠ ألف جندي جمعها من أهل الشام والجزيرة والموصل، بالإضافة إلى ١٨٠٠ قطعة بحرية واتخذ من دابق معسكراً له وأعطى الله عهداً أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش القسطنطينية. ومن هذا المكان قام الخليفة بتعبئة الجيش الذي تحرك في عام (٩٨ هـ ٧١٧ م) باتجاه العاصمة البيزنطية، سالكاً طريق مرعش من ناحية الشام.

ومن جهته، فإن الأمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثالث استعد لمقاومة حصار شديد على عاصمته، فرمم الأسوار وخزن الغلال ومن ثم راح يناوش الجيش الإسلامي لعرقلة تقدمه، لكن دون جدوى.

ووصل الجيش الإسلامي إلى ثغر الأناضول، بعد أن اجتاز مناطق الثغور الحدودية وتوغل في هذا الإقليم حتى وصل إلى عمورية وحاصرها. علم ليو الأيسوري قائد هذا الثغر، بنوايا المسلمين فأبدى استعداداً للتعاون معهم، وكان طموحاً يتطلع إلى انتزاع العرش الأمبروطوري، فاتفق مع مسلمة على خطة تتيح للمسلمين فتح القسطنطينية وترفعه إلى العرش ثم واصل المسلمون تقدمهم فاجتازوا ثغرات الأناضول دون أية مقاومة جدية، وأضحت منطقة آسيا الصغرى حتى البوسفور مفتوحة أمامهم في هذه الأثناء، حصلت تطورات داخلية مهمة في بيزنطية تمكن خلالها ليو الأيسوري من ارتقاء العرش باسم ليو الثالث، واشتهر بأنه الرجل الذي يستطيع مواجهة الأخطار التي تتهدد العاصمة بعد أن تنكّر لاتفاقية السلام التي عقدها مع مسلمة، فخدع المسلمين وتحايل على تجريدهم من أقاتهم، في الوقت الذي اقترب فيه الجيش الإسلامي من بحر إيجه وسيطر على مدينتي سارديس وبرجاموس وتقدم إلى أبيدوس على مضيق الدربيل، ثم عبر إلى الشاطئ الأوروبي، فألقى أفرادهم عند أسوار القسطنطينية وحاصروها من جهة البر.

وتحرك في الوقت نفسه، الأسطول الإسلامي الضخم باتجاه الدردنيل وبحر مرمرة، وحاصر المدينة من جهة البحر، وتمكن من إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر السود وهكذا تعرضت القسطنطينية الحصار بري وبحري شديدين.

أراد مسلمة اقتحام المدينة عنوة، فنصب عليها المجانيق الضخمة وأخذ يضربها لكن ردتها مناعة الأسوار ومهارة المهندسين البيزنطيين، وتوفر أدوات الدفاع لديهم وجاءت عاصفة عاتية، حطمت عدداً من السفن الإسلامية، وأحدثت تزعزعاً في مسيرتها، فانتهاز البيزنطيون هذه الفرصة وأحرقوا عدداً كبيراً منها بالنار الإغريقية وبالرغم من ذلك استمر المسلمون يحكمون الحصار على المدينة .

وظهرت آنذاك مواهب ليو الثالث العسكرية، فأغلق مدخل البوسفور بسلسلة ضخمة من الحديد لإحكام السيطرة عليه، وشحن الأسوار بالعساكر، الذين بذلوا جهوداً كبيرة لمنع المسلمين من اقتحام المدينة، وملاً المخازن، وأرسل جيشاً لقطع طريق الإمدادات على المسلمين .

أقلقت هذه التدابير المسلمين، لكنها لم توهن عزيمتهم، فبنى مسلمة بيوتا من الخشب أمضى فيها فصل الشتاء، كما وصلته إمدادات برية من أفريقيا، وإمدادات بحرية من مصر، كان من ضمنها جماعة من البحارة المسيحيين، وقد ساعدته هذه الإمدادات على إحكام وتشديد الحصار، كما أطالت أمد الحرب، وأرسل الخليفة ابنه داوود على رأس جيش لدعمه وإثارة الاضطرابات في آسيا الصغرى على الحكم البيزنطي لكن داوود فشل في تحقيق هذين الهدفين، إذ لم يتمكن من الوصول إلى مسلمة كما أن قبضة ليو الثالث على آسيا الصغرى حالت دون تحقيق الهدف الثاني.

في هذا الوقت عجز الجيش الإسلامي من تطويق الجبهة الشمالية للعاصمة البيزنطية، مما مكنها من الاتصال بسواحل البحر الأسود التي أمدتها بحاجاتها من الغلال والمؤن، في حين أخذت الإمدادات والمؤن لدى المسلمين بالتناقص، بعد فشل وصول الإمدادات من الشام، على الرغم من أنهم كانوا يأكلون مما يزرعون ويغتمون.

وجاء البرد قارساً في تلك السنة ففت في عضد المسلمين، وهاجمهم البلغار من الجانب الأوروبي، بالاتفاق مع ليو الثالث، وتغلبوا على القائد البحري عمر بن هبيرة. وأبعدهم عن العاصمة، وأنزلت النار الإغريقية التي استعملها البيزنطيون أضراراً جسيمة جداً بالسفن الإسلامية ومما زاد الأمر سوءاً ما جرى من تواطئ البحارة المسيحيين الذين يعملون في الأسطول الإسلامي، مع البيزنطيين بعد أن نجح ليو الثالث في تحريضهم على العصيان وما جرى من نفاذ الأوقات، وطول أمد الحصار. الذي استمر ما يزيد على السنة، وطول خط الإمدادات ثم وفاة سليمان واعتلاء عمر بن عبد العزيز سدة الخلافة، الذي لم يكن يميل إلى مواصلة سياسة الفتوح، لما تكلفه من أرواح ونفقات؛ جعلت المسلمين في موقف حرج، ولم ينقذهم سوى كتاب عمر بن العزيز إلى مسلمة بأمره فيه بفك الحصار عن القسطنطينية والعودة إلى الشام .

ورفع مسلمة الحصار في شهر ذي الحجة عام ٩٩ هـ شهر تموز عام ٧١٨م وقام ما تبقى من الأسطول بنقل الجيش البري، إلى آسيا الصغرى، لكنه تعرض للعاصفة أثناء عبوره الأرخييل فتشتتت السفن وهاجمها البيزنطيون ولم ينج منها سوى عشر.

يعتبر هذا الهجوم الأخير الذي قام به المسلمون العرب لفتح القسطنطينية وكان بداية التغير ميزان القوى، للفترة من الزمن، في الصراع بين المسلمين والبيزنطيين الصالح هؤلاء، كما أثر هذا الفشل في الاستراتيجية العسكرية للمسلمين في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية، فتحولوا من أسلوب الهجوم إلى أسلوب الاشتباكات والمناوشات التي لم تهدد كيان الإمبراطورية.

ولاية العهد - وفاة سليمان

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب من بعده فمات هذا الأخير وهو والي للعهد. فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة في تولية عمر بن عبد العزيز موافقه على ذلك وكتب كتاباً فيه عهده إليه .

توفي سليمان العشرين بقين من شهر صفر عام ٩٩ هـ / شهر أيلول عام ٧١٧ م) وهو مرابط في سبيل الله في دابق من أرض قنسرين.

عمر بن عبد العزيز

(٩٩_١٠١هـ/٧١٧_٧٢٠م)

التعريف بعمر بن عبد العزيز

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص أبو حفص القرشي الأموي، أمير المؤمنين، وأمه أم عاصم ليلي بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ولد عام (٦٢) هـ / ٦٨٢م) بطوان في مصر، فترعرع في بيئة مصرية اشتهرت بالنعيم وفي بيئة اشتهرت بالكرم والتقوى حفظ عمر القرآن وهو صغير، وما إن بلغ سن الرشد حتى اشتد حرصه على طلب العلم، ورغبته في تعلم الأدب، لذلك طلب أبيه عندما أراد أن يخرج مع إلى الشام أن يرسله إلى المدينة ليتردد على فقهاءها، ويتأدب بأدابهم حتى حقق أبوه رغبته فلانزم مشايخ قريش وتجنب شبابها، وما زال ذلك دابته حتى اشتهر ذكره، فشب متفقهاً في الدين راوياً للحديث عن كثير من الصحابة والتابعين، وعكف على دراسة الأدب، ونظم الشعر، حتى بلغ مرحلة متقدمة، وكان حجة عند العلماء فقد قال الإمام أحمد بن حنبل (لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز)

و ظل عمر في المدينة حتى وفاة والده في عام (٨٥) هـ / ٧٠٤م) وانت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، فبعث يطلب ابن أخيه إلى دمشق وزوجه ابنته فاطمة و عينه الياً على إمارة صغيرة في الشام في خنصرة من أعمال حلب أراد أن يدرجه على الإدارة وفن الحكم وبقي عمر والياً على خنصرة حتى وفاة عمه عبد الملك في عام (٨٦) هـ / (٧٠٥م) وتولية ابنه الوليد الخلافة الذي استمر في التعاون مع ابن عمه فعينه والياً على المدينة في عام (٨٧هـ/٧٠٦م).

كان تعيين عمر واليا على المدينة دليلاً على رغبة الوليد في إقامة العدل بين سكانها بعد سيرة هشام بن إسماعيل المخزومي السيئة فيهم، فأراد الوليد أن يعرضهم برجل يعتبرونه واحد منهم.

ولا شك بأن أهل المدينة سعدوا بولاية عمر الذي ظهرت رغبته في تحقيق العدل من اللحظة الأولى لتوليته، فاتخذ له أعواناً ومستشارين من خيرة أهلها ليعاونوه على الحق، وحرص أن تكون ولايته مثلاً للتعايش المتكافئ بين مختلف الفئات، في إطار القوانين الإسلامية، متأثراً، إلى حد كبير، بشخصية الخليفة عمر بن الخطاب، ونهجه وما لبثت المدينة أن أضحت مجتمعاً منفتحاً على كل الاتجاهات السياسية والدينية.

بقي عمر والياً على المدينة حوالي ستة أعوام، كان فيها موضع الرضا من أهلها، ومثالاً للتقى والورع، ويفعل سياسته الانفتاحية، أضحت المدينة ملجأً للمضطهدين والملاحقين من قبل السلطة، خاصة الحجاج في العراق حيث وجدوا الاستقرار والأمن لكن ذلك كان سبباً في توتير العلاقة مع الإدارة المركزية التي ساءها تصرف والي المدينة، وضايقها انفتاحه، مما يعتبر خروجاً على التقاليد المتوارثة في نهج حكم، لذلك عزل الخليفة الوليد واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز في عام (٩٣ هـ ٧١٢ م) بناء على طلب الحجاج الذي شكوا من أن العصاة والخارجين على النظام من أهل العراق، يلجأون إليه، ويجدون عنده المأوى والحماية.

أثرت حادثة العزل على نفسية عمر، فتألم لذلك ولم يتول عملاً رسمياً بقية خلافة الوليد وعندما تولى سليمان الخلافة أضحى عمر من أقرب الناس إليه، ومن كبار مستشاريه وأعوانه، وظل يلازمه طوال خلافته، وأعجب الخليفة بابن عمه، وكان شديد الثقة به .

ولما مرض سليمان مرضه الذي توفي فيه كتب كتاباً بتوليته الخلافة، بناء على

نصيحة رجاء بن حيوة، على أن تعود بعد وفاته إلى يزيد بن عبد الملك، ودعا أهل بيته وقال لهم (بايعت لمن عهدت إليه في هذا الكتاب) ولم يعلمهم به فبايعوا متوجاً بذلك أعماله الصالحة والحقيقة أن عمر لم يكن راغباً في تولي الخلافة، فقد كان يعرف أنها حمل ثقيل، ومسؤولية جسيمة.

ولما توفي سليمان في دابق جمع رجاء وجوه بني أمية وكنتم موت الخليفة عنهم وخرج بعهدة المحتوم وطلب منهم المبايعة مرة أخرى لمن سماه سليمان في كتابه فلما تمت بيعتهم، أخبرهم بوفاة سليمان، وقرأ عليهم الكتاب، فبايعوا عمر بن عبد العزيز

لكن القرار جاء صدمة لأبناء عبد الملك، وفي طليعتهم هشام الذي رفض في البدء الاعتراف بالأمر الواقع، ولم يبايع الا عندما سمع باستخلاف يزيد بن عبد الملك بعد عمر.

كانت الخلافة نقطة تحول في حياة عمر بن عبد العزيز من ناحية، وذات أثر كبير في تاريخ دولة الخلافة الأموية بشكل خاص والتاريخ الإسلامي بشكل عام من ناحية أخرى.

أما أثرها في حياة عمر، فقد فصلت بين مرحلتين، مرحلة كان عمر فيها، رغم صلاحه وتقواه، يتقلب في النعيم ويحيا حياة مترفة ناعمة، يلبس لين الثياب، ويأكل طيب الطعام، ويتبختر في مشيته، حتى عرفت مشيته بالعمرية لتميزها، وكان إذا مر من شارع تفوح منه رائحة المسك، كما كان كثير العناية بتسريح شعره والاعتناء بحسن مظهره.

أما المرحلة التي قضاها عمر في الخلافة فقد تميزت بالزهد الصادق، والبعد عن زخرف الحياة وزينتها وإحساسه العميق بالمسؤولية حتى قسا على نفسه في ذلك. اعتقاداً منه أنه ربما يكون قد أسرف في الحياة الناعمة، قبل أن يلي الخلافة، فكأنه أراد. أن يكثر عن ذلك بالقسوة على نفسه، لذلك رفض استعمال مراكب الخلافة بعد بعثه الما فيها من الأبهة والفاخرة.

أما أثر خلافته في تاريخ دولة الخلافة الأموية فإن نهج عمر. في الحكم يعتبر خروجاً على النهج الذي اختطه معاوية بن أبي سفيان، وسار عليه من جاء بعده من الخلفاء الأمويين، وهو إلى النهج الراشدي أقرب، ومغيراً بعض المفاهيم الأموية التي اعتبرها شاذة، مقوماً بذلك ما عرف عن هذا النظام من خروج على التقاليد الإسلامية.

أما أثر خلافته في التاريخ الإسلامي، فإن عمر قدم الدليل الواضح على أنه إذا صحت عزيمة الحاكم المسلم واستشعر بالمسؤولية عن الأمة أمام الله تعالى، أضى بإمكانه أن يقوم الأوضاع المعوجة، وأن يرد المنحرفين إلى سواء السبيل.

كان عمر بن عبد العزيز بعيداً عن كبرياء الملوك، زاهداً في الملك غير طامع فيه ولعل الخلافة سعت إليه دون أن يسعى للوصول إليها ويبدو أن ظروفها غير عادية أسهمت في ذلك، أهمها: وفاة الخليفة سليمان وهو يتابع أخبار حملته إلى القسطنطينية التي كان أحد قادتها ابنه داوود، بينما ابنه الآخر كان لا يزال صغيراً، فاستغل رجاء هذا الفراغ وتوصل إلى إقناعه بتولية عمر بن عبد العزيز خليفة له .

أعاد عمر إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين فلما ولي الخلافة خطبهم فقال «أيها الناس، إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد عليه السلام، وإني لست بقاض ولكني منفذ، وإني لست بمبتدع ولكني متبع، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم إلا أن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل، وفي رواية أنه قال: «إني لست بخير من أحد منكم ولكني أثقلكم حملاً إلا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ألا هل أسمعت ؟»

وفي خطبة له في مستهل عهده أنه قال « من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهد، ويدلنا على الخير على ما نهدي إليه، ولا يغتابن أحداً، ولا يعترض فيما لا يعنيه». فالتفت حوله الفقهاء والزهاد وتجنبه الشعراء والخطباء.

سياسة عمر بن عبد العزيز العامة

كان لعمر بن عبد العزيز نظرتة الخاصة في تقويم ما اعوج من الأمور إن في حقل

السياسة الخارجية والداخلية، أو في حقل الإدارة والمال. إنه أول خليفة أموي شد عن النهج التقليدي الذي سار عليه الأمويون. لقد كان مختلفاً عن أقرانه حتى في حياته الخاصة التي اتسمت بالبساطة، والابتعاد عن المظاهر الملكية، وتناول في إصلاحاته التي نفذها مختلف جوانب المجتمع بحيث أعاد النظر في النهج والأسلوب . ففي حقل السياسة الخارجية، يعتبر القرار الذي اتخذته بانسحاب مسلمة بن عبد أمام أسوار القسطنطينية، تحديداً لموقفه من الفتوحات، القاضي بتجميد العمليات العسكرية، والمحافظة على مكتسبات الفتوح والدفاع عنها ضد الأخطار الداخلية والخارجية، بالإضافة إلى اتباع سياسة سلمية تجاه الشعوب غير الإسلامية، ودعوتها إلى الإسلام".

أما في حقل السياسة الداخلية، فقد تناول في إصلاحاته مختلف جوانب المجتمع الإسلامي ولعل أهمها :
انفتاحه على الأحزاب المعارضة، بهدف التخفيف من عدائها التقليدي للأمويين كالشيعة والخوارج .
استيعاب المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أفرزتها الفتوحات.

التسامح الديني مع غير المسلمين، ودعوتهم إلى الإسلام. خلق طبقة إدارية متأثرة بأفكاره الإصلاحية
ففيما يتعلق بانفتاحه على الأحزاب المعارضة، فقد ترك عمر لعن علي بن أبي طالب على المنابر وجعل مكان ذلك قوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) . ويمثل هذا التصرف سياسة رشيدة تهدف إلى رأب الصدع، وتضميد الجراح التي دفعت بالمسلمين إلى الحروب الأهلية، وقد سار في ذلك على خطى والده عبد العزيز في واشتهر عمر بانفتاحه على الخوارج، وكان يرى أن سياسة المسالمة كقيلة بحل المشكلات الشمل، وتوحيد الكلمة. ولم يشأ أن يسلك العنف، أو يأخذهم بالشدة عندما خرجوا في عهده، فحاورهم وأقنعهم بالكف عن حقن الدماء، فأرسل إلى شوذب الخارجي كتاباً يقول فيه : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه، ولست أولى بذلك مني، فهلم أنا ظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرناه . مصر وجمع معهم سبيل

. لقد هدف عمر إلى إزالة الخلاف بين الفريقين عن طريق الإقناع بالحجة والبرهان، وقد أثمرت هذه السياسة فشهد أحد المتحاورين من الخوارج بأنه على صواب، لكن لغة الحوار مع الخوارج لم تستمر بفعل

وفاة عمر ونلاحظ أنهم هجروا العنف في عهده والتفتوا إلى حماية الضعفاء والمضطهدين ومحاربة المستبدين والظالمين

وفيما يتعلق بالتسامح الديني مع غير المسلمين ودعوتهم إلى الإسلام، فقد نظم عمر حركة ملؤها الحماسة الدينية لنشر الدعوة الإسلامية، وقدم لأهالي البلاد المفتوحة الإغراءات المالية للدخول في الإسلام وتذكر الروايات التاريخية أنه أعطى بطريقاً ألف دينار تألفه بها على الإسلام، كما أمر عمال الولايات بدعوة الذميين إلى الإسلام، حتى إنه كتب إلى الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث يدعوه إلى الإسلام، ومع تقدير هذا الأخير لشخص عمر وخلقه وحصافة سياسته إلا أن الدعوة وقفت عند هذا الحد بفعل وفاة عمر قبل أن يرد الإمبراطور على رسالته . ودخل في الدين الإسلامي كثير من سكان بلاد ما وراء النهر كما استجاب كثير من أمراء السند لدعوته، وأرسل عمر الفقهاء إلى المغرب ليفقهوا مسلمي البربر وبذل عامله على هذه البلاد، إسماعيل بن عبد الله نشاطاً ملحوظاً في دعوة من تبقى من البربر إلى الإسلام. وفيما يتعلق بالإدارة، فقد كان عمر على مستوى عال في التفكير الإداري فقد تفرس على العمل الإداري منذ أن كان والياً على خنصرة والمدينة، وازدادت خبرته في العمل الإداري، بعد أن أضحي مقرباً من الخليفة سليمان، ومستشاراً له، بفعل أنه راح ينظر إلى الأمور الإدارية عن قرب، ويتمرس على إدارة شؤون الدولة، وتسيير دفة الحكم ..ولما تولى الخلافة، راح يعمل في إصلاح أجهزتها الإدارية، وتحقيق العدالة والاستقرار فيها، كما اتخذ منهجاً يتجلى في المحافظة على المال والوقت والجهد وسرعة التصرف في الأمور وحسن اختيار القضاة والولاة والموظفين، وتحقيق التوازن بين الناس كافة ومن شدة حرصه على الوقت فإنه كان لا يؤجل عمل اليوم إلى الغد، كما كان يعمل على سرعة تصريف الأمور، حتى ظهر عليه الإرهاق. لم يرض عمر عن الأسلوب الذي أدار فيه بعض عمال بني أمية أمور الدولة، وكان يرى أنهم تجاوزوا الحد في القسوة والجبروت فانتهى أفضل وأصلح الرجال وولاهم الأعمال، وكان حريصاً على الاعتماد على أكثر العناصر كفاءة وعلماً وإيماناً وقبولاً لدى المسلمين لم يكن عمر يحسن اختيار عماله فحسب بل كان يتابع أعمالهم ويرسم لهم المنهج الذي ينبغي أن يطبقوه ليقوموا العدل بين الناس وكتب إلى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب السلام عليك، أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله وسنة خبيثة استنتها عليهم عمال السوء وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا يكونن شيء أهم إليك من نفسك فإنه لا قليل من الإثم، ولا تحمل خراباً على عامر ، ولا عامراً على خراب، انظر الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر، إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض. ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض. فاتبع في ذلك

أمري، فإني قد ولّيتك من ذلك ما ولّاني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب، حتى تراجعني فيه، وانظر من أراد أن يحج من الذرية فعجل له مائة يحج بها والسلام). وكتب إلى عامله على الموصل يحيى الغساني أن يأخذ الناس بالبيئة وما جرت عليه السنة، ولا يأخذهم بالظلة ويضربهم على التهمة. وتلقي هذه التعليمات ضوءاً واضحاً على أساليب الحكم التي كانت متبعة في تلك الأيام خاصة في العراق، حيث كان الناس يؤخذون بالشبهات، وهذا أسلوب عبید الله بن زياد والحجاج بن يوسف بشكل خاص . واستطاع عمر في بداية عهده أن أبعد بقايا تلاميذ الحجاج وأبناء مدرسته عن الإدارة، ولكن مع ذلك بقي في إدارة الدولة رجال لا يتفق أسلوبهم الإداري مع نهجه مثل يزيد بن المهلب وآله الذين قال عنهم عمر هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم ولذلك عزله فيما بعد . وفيما يتعلق باستيعاب المشاكل التي أفرزتها الفتوحات، فقد حرص عمر على إزالة الظاهرة السيئة التي كانت مطبقة في الدولة، وهي ظاهرة أخذ الجزية من الذين أسلموا حديثاً، وكان الهدف من وراء ذلك تحقيق المساواة بين المسلمين، بغض النظر أصرهم والوصول إلى تهيئة الأجواء المناسبة لانتشار الإسلام وتثبيته ١٤٢ / ٢٢٥ د المفتوحة، وإقامة مجتمع متحرر من العقد الاجتماعية والحساسيات القومية والقبلية فأمر عامله على خراسان، الجراح بن عبد الله الحكمي، أن يدعو السكان إلى الإسلام، وأن يخبرهم بأن الجزية والخراج سيرفعان

عن يسلم منهم، وأن اسمه سيسجل في ديوان العطاء، وسيعامل كبقية المسلمين من حيث الحقوق والواجبات

والواقع أن هذا الإجراء الذي اتخذه عمر جاء نتيجة وصول شكاوى من خراسان تفيد بأن عشرين ألفاً من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق، وأن عدداً مثلهم من أهل الذمة قد أسلموا دون أن يرفع الخراج عنهم، وقد اتهمت هذه الشكاوى الجراح بالتعصب للعرب، كما اتهمته بأنه سيف من سيوف الحجاج

ورأى عمر أن الوسيلة لمنع تصدع الدولة وانحلالها السريع، ووضع حد للاضطرابات والفتن هي جمع الناس حول العقيدة الإسلامية، وانصهارهم في المجتمع الإسلامي، دون تمييز في الحقوق والواجبات.

وتنفيذاً لهذا المبدأ، أصدر أمراً إلى جميع عماله في أنحاء الدولة يقول لهم: وعليه، فكل من يعتقد الإسلام، سواء كان مسيحياً أم يهودياً أم مجوسياً ممن يدفعون الجزية الآن، ويساكنون المسلمين في دار الإسلام، بعد أن تخلوا عن ديارهم التي كانوا يسكنونها من قبل، فإنه يتمتع بكل الامتيازات التي يتمتع بها

المسلمون، ويتحمل ما يتحملون من واجبات، وعلى المسلمين أن يسالموه ويعاملوه كواحد منهم والملاحظ في هذا الأمر، أن عمر تجنب لفظ الموالي، وما ذلك إلا لأنه حاول

أن يؤكد أن الانتماء في المجتمع يقوم على أساس الإسلام، وعلى المساواة، وليس قبيلة ما. وأكد أن العطاء لا يعطى للمقاتلة، لمجرد كونهم عرباً، ٢٢٥/ ١٤٣

ن لمن يقاتلون فعلاً من المسلمين دون تمييز، وأن من يعتنق الإسلام لا يدفع من الضرائب إلا مثل ما يدفعه المسلم العربي الذي في مثل وضعه . نتيجة لهذه السياسة العمرية، ازداد إقبال الناس على الدخول في الإسلام فنقص إيراد بيت المال نقصاً ملحوظاً، وشعر الولاة بذلك فشكوا إلى الخليفة الذي لم يستطع أن ينظر إلى القضية إلا من الزاوية الدينية فكتب إلى واليه على مصر حيان بن شريح الذي شرح له وضع أهل الذمة، ودخولهم في الإسلام، وكسرهم الجزية: «أما بعد فإن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا إلى الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل فتعززت نتيجة هذه السياسة مواقعهم الاجتماعية بشكل ملموس.

ومن أعمال عمر الإصلاحية أنه أمر ببناء الخانات في البلدان القاصية، وعلى طريق خراسان وكتب بذلك إلى سليمان بن أبي السري وزوده بتعليمات تقضي باستضافة المسلمين المسافرين يوماً وليلة وتعهدهم، ومن كانت به علة فاستضافته يومين وليلتين، وإن كان منقطعاً فليبلغه بلده

وهكذا حقق عمر بن عبد العزيز أفكاره المثالية التي تهدف إلى نشر سلطان العدل والرفق في جمع المال وعدم جباية الأموال غير الشرعية، كما منع قبول الهدايا، إلا أنه لم يكن من الممكن أن يستمر تحقيق كل أفكاره المثالية هذه، فإعفاء الذين يدخلون في الإسلام من دفع الجزية كان يقلل الدخل، بينما كان جمع ما كانوا يحصلونه من غير المسلمين يزيد الأعباء المالية على عاتق هؤلاء كذلك كان السماح بالهجرة للمزارعين الذين يدخلون في الإسلام سبباً في خراب الريف، ومثل هذا يمكن أن يقال عن بعض القضايا الأخرى، لذلك لم يكن من المستغرب أن تعود الدولة إلى سياستها السابقة بعد

وفاته .

وفاة عمر بن عبد العزيز

سمعان بين حماة توفي عمر بن عبد العزيز في الخامس والعشرين من شهر رجب عام ١٠١ هـ شهر كانون الثاني عام ٧٢٠م) وهو بخاصرة من دير . وحلب عن عمر يناهز التاسعة والثلاثين عاماً، وكانت مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر، ويعتبر عهده من أحسن عهود الخلفاء حتى إن بعض المؤرخين اعتبروه متمماً العهد للخلفاء الراشدين

يزيد بن عبد الملك: يزيد الثاني

(١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م)

التعريف بيزيد الثاني

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان أبو خالد القرشي الأموي، أمير المؤمنين وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ولد بدمشق في عام (٧٢ هـ / ٦٩١ م) وكان قبل استخلافه يكثر من مجالسة العلماء .

ببيع يسير له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز في شهر رجب عام ١٠١ هـ/ شهر كانون الثاني عام ٧٢٠ م) بعهد من أخيه سليمان أن يكون الخليفة بعد عمر، حاول أن على نهج هذا الأخير لكن لم تتوفر له بطانة صالحة، فأنحرف حتى إن شخصيته مثلت الشخصية الأولى في الخلفاء الضعاف، بالإضافة إلى أنه مثل في شخصيته السياسية، العقلية الأكثر تحجراً في البيت الأموي، خاصة وأنه أول خليفة أموي أظهر تعاطفه العلني مع الخط القيسي المعروف بعصبيته الشديدة، خلافاً لأسلافه المتعاطفين بصورة متفاوتة مع الخط اليميني

وقد أبرزت كتابات المؤرخين شخصية الخليفة يزيد الثاني وهي عبثية منصرفة إلى مجالس الغناء والجواري أكثر من ارتباطها بقضايا الناس ومشاكل الدولة.

الأوضاع الداخلية في عهد يزيد الثاني

خروج يزيد بن المهلب

أظهرت الأحداث السياسية في عهد يزيد الثاني أن هذا الخليفة كان أسير عصبته التي اقترنت بالتعصب الشديد للحزب القيسي، وكان من نتيجتها خروج يزيد بن المهلب. وتعود الأسباب الأولى لهذه الحركة إلى ذلك الخلاف القديم بين الحجاج وبين يزيد بن المهلب وهو الذي أدى إلى عزل هذا الأخير بفعل التناحر القبلي على الأرجح.

وأعيد اعتبار يزيد وأسرته في عهد سليمان بن عبد الملك من خلال سياسة الخليفة إقامة التوازنات القبلية، وعينه سليمان حاكماً على العراق والمشرق الإسلامي، وفي عهد عمر بن عبد العزيز أعيد يزيد إلى السجن بسبب تعارض سلوك الخليفة السياسي والاجتماعي مع سلوك آل المهلب ذوي النزعة الأرستقراطية. وكانت التهمة إخفاء الأموال المطلوب تسليمها إلى الخلافة منذ العهد السابق المتأتية من إيراد خراسان وغنائم حروبه في جرجان و طبرستان.

وجاءت الكارثة التي حلت بيزيد بن المهلب اليمني الانتماء عندما اعتلى يزيد بن عبد الملك، وهو المتعاطف مع الخط القيسي، سدة الخلافة، وكان يزيد بن المهلب هذا قد فرّ من سجنه في أواخر أيام عمر بن عبد العزيز، واستولى على البصرة، وعمل على تفجير الوضع الداخلي ضد السلطة والنظام معتمداً على أنصاره فيها، ورفض، في الوقت نفسه، دعوة أخيه حبيب بن المهلب الخروج إلى خراسان، الأرض الصالحة المناولة الأمويين. وكان سقوط البصرة وطرد حاكمها الأموي فرصة طيبة للمضي في حركته. وقد رفض عرضاً من الخليفة للتفاوض بشأن العفو تجنباً للاصطدام " وتمادى في معارضته حين استولى على الكوفة وعلى ما يلي البصرة من فارس والأهواز، وكاد ييسط سلطانه على العراق كله .

ورفع شعاراً مناهضاً للنظام إن جهاد أهل الشام أعظم أجراً وثواباً من جهاد الترك والديلم». ويايعه الناس على ((كتاب الله وسنة نبيه محمد □ وعلى ألا تطأ جنود أهل الشام بلادنا ولا بيضتنا ولا تُعاد فينا عنه سيرة الحجاج)).

وهكذا فإن حركة ابن المهلب كانت ضد العودة إلى جوهر السياسة التوسعية بما فيها استعمال جيش الشام في العراق وبقاؤه فيه والظاهرة الملفتة للنظر في هذه الحركة، ما روي عن الضمام فلة من الجيش الشامي إلى يزيد بن المهلب، في حين تجد ان عرب خراسان والأزد منهم بشكل خاص، وهم عشيرة يزيد، لم يناصروا الثورة ولم ينضموا إليها، على الرغم من محاولته الفاشلة لاستقطابهم، وتعاون هؤلاء مع بني تميم في صده عن خراسان.

ويبدو أن عرب خراسان أرضتهم سياسة عمر من قبل، وأن الخليفة الجديد يزيد الثاني أمر هذه السياسة من خلال واليه على خراسان.

وأظهرت التحالفات حظي بها يزيد بن المهلب من أهل العراق نوعية التأييد لحركته، فإذا هي حركة انتقامية ضد تراث الحجاج فكان الموقف العدائي من هذا الحاكم السابق هو القاسم المشترك بينه وبين أنصاره العراقيين .

غير أن هذه الحركة لم تكن سوى تدبير ارتجالي مؤقت دون تخطيط منظم ومرتبطة بقائدها الذي كان ملاحقاً من قبل السلطة ومجبوراً على الهرب من وجهها. وكانت هذه السلطة لا تزال تمسك بزمام المبادرة في العراق، وتمكنت من تصفية هذه الحركة على يد مسلمة بن عبد الملك الذي قضى على يزيد بن المهلب وحركته بعد معركة قصير

كانت حركة يزيد بن المهلب إحدى أهم الحركات المعارضة للنظام في عهد يزيد الثاني، إذا ما استثنينا ما قام به الخوارج من تحرك محدود بقيادة شوذب، بعد وفاة عمر بن عبد العزيز، واستطاع أن يهزم عدة جيوش عراقية أرسلت لقمع حركته إلا أنه انهزم أمام سعيد بن عمر الحرشي الذي قاد جيشاً أمويًا من عشرة آلاف مقاتل اصطدم به واستطاع القضاء عليه .

ظهور الدعوة العباسية

في الوقت الذي ارتحل فيه رجال بني أمية إلى الشام حيث أقاموا لهم دولة مترامية الأطراف ، ظل منافسوه من بني هاشم يقيمون في المدينة، وقد انقسموا، بفعل الظروف المحيطة بهم والتيارات السياسية التي عمت المجتمع الإسلامي، إلى فرعين: أحدهما يمت إلى علي بن أبي طالب، والآخر إلى العباس عم النبي وكان لكل فرع طموحاته التي راح يعمل على تحقيقها بعد قليل من الوقت إنما كانت تربطهما علاقة قائمة على الود والصفاء والمصلحة المشتركة بشكل عام، ألا وهي العداء لبني أمية . والراجح أن الناس، في ذلك الوقت ، لم يفرقوا بين آل البيت وإن كان هؤلاء بيوتاً مختلفة لكل دوره ومكانته.

وفي أواخر القرن الأول الهجري كان يرأس بنو العباس محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ويعيش في الحميمة . في حين آل أمر الشيعة الكيسانية . إلى أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية الملقب بالمهدي. وراح أبو هاشم هذا يدعو إلى نفسه سرا بفعل ملاحقة السلطات لزعماء الشيعة وقمع الحركات الشيعية المعارضة. وقد ناصره العديد من الأنصار الذين أخذوا يروجون لدعوته.

وتوفي أبو هاشم آخر إمام للمشيعة الكيسانية في عام (٩٨ هـ / ٧١٦م) ولم يكن له عقب، فاستغل العباسيون هذه الفرصة واندمجوا في الشيعة الكيسانية. واستغلها علي بن عبد الله العباسي لصالحه باعتباره أكبر القوم سناً من الفرعين الهاشميين والمتكلم باسمهم دون أن ينازعه أحد، أو يشك في نواياه. وكان من الطبيعي أن ينظر آل البيت بعين الرضا إلى كل تنظيم يدعو إلى آل محمد بغض النظر عن البيت الذي ينتمي إليه.

وتوافدت الشيعة على خليفته الإمام محمد بن علي لمبايعته. وكان أول من قدم منهم ميسرة العبدي وأبو عكرمة السراج ومحمد بن خنيس وحيان العطار، وقالوا له : ((ابسط يدك لناييك على طلب هذا السلطان. لعل الله أن يحيي بك العدل، ويميت بك الجور، فإن هذا وقت ذلك وأوانه ، والذي وجدناه مأثوراً عن علمائكم))

وأمر محمد بن علي الدعاة بالتركيز على خراسان، المصر الأكثر تشنجاً، والأكثر حنقاً على بني أمية، خاصة بعد أن فرقت العصبية العرب هناك وقسمتهم قسمين قسم مع الأمويين وهم عرب مضر ، وقسم ضدهم وفيهم اليمن. ثم وجه ميسرة إلى العراق ومحمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار إلى خراسان وأمرهم بالدعاء له ولأهل بيته في رفق وستر. وكان الدعاة يترددون على الشراة لبحث خطط الدعوة مع

الإمام وينقلون إليه ما آلت من نجاح وانتشار، وازدادت الحركة العباسية عنفاً في عهد هشام الذي خلف يزيد الثاني وتوسعت وامتدت شبكاتها فشملت العراق وفارس لكنها تميزت بالقوة الطاغية في خراسان ولم تكن السلطات على علم بنشاط الدعاة في بادئ الأمر، ثم راحت تطارد أتباع الدعوة بعدما انكشف أمرهم وتعتقل بين الفينة والفينة عدداً من الأشخاص بتهمة الانتماء إليها.

سياسة يزيد الثاني الخارجية

حافظت دولة الخلافة الأموية في عهد يزيد الثاني على إحجامها عن تنفيذ فتوحات مهمة والواقع أن الظروف السياسية التي كانت تمر بها هذه الخلافة من حركات داخلية مناهضة وخلفاء ضعاف، حكمت السير في هذا النهج وشهدت المناطق الحدودية على كافة الجبهات هدوءاً نسبياً لم يعكسه سوى إخماد ثورة، أو قمع حركة تمرد أو غزوة بهدف إثبات الوجود.

ويبدو أن الجبهة البيزنطية وجبهة أرمينيا كانتا أنشط الجبهات الحدودية لكن الأمر اقتصر على الخط الممتد من جبال طوروس إلى قبادوقيا، مع إرسال حملات موسمية للدفاع عن القواعد الإسلامية أو مضايقة البيزنطيين في آسيا الصغرى، في حين شهدت الجبهة الأرمينية بعض النشاطات العسكرية.

((ولاية العهد - وفاة يزيد الثاني))

أراد يزيد الثاني أن يولي ابنه الوليد من بعده، إلا أنه كان صغيراً، فولى أخاه هشاماً، ومن بعده ابنه

الوليد. توفي يزيد الثاني (الخميس بقين من شهر شعبان عام ١٠٥ هـ / شهر كانون الثاني عام ٧٢٤ م)

بالبقاء من أرض الشام عن عمر يناهز الثامنة والثلاثين عاماً بعد أن حكم مدة أربع سنوات وشهراً.

هشام بن عبد الملك

(١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣ م)

التعريف بهشام

هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي أمير المؤمنين. وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي. ولد في عام (٧٢ هـ / ٦٩١ م).

ولي الخلافة بعد وفاة أخيه يزيد وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، ويُعتبر من أخيار خلفاء بني أمية.

اتصف هشام بالحزم والذكاء، عاقلاً ، مديراً بصيراً بالأمر، يقظاً، ساهراً على مصالح الأمة، واشتهر بالتدبير وحسن السياسة واستطاع أن يعيد للدولة توازنها القبلي، مما أدى إلى تجميد عجلة التدهور مؤقتاً .

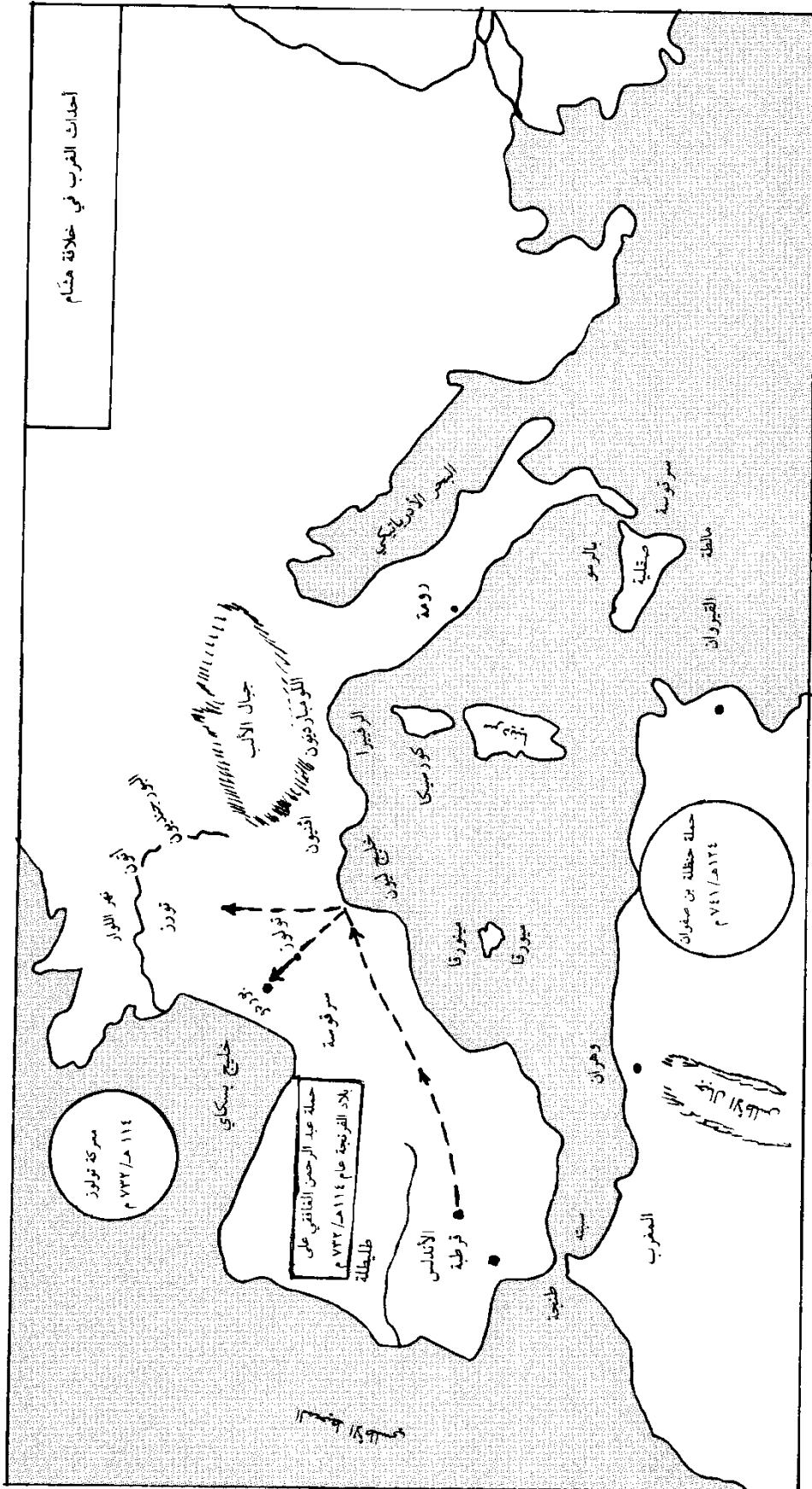
من فضائله، أنه كان يجمع المال من وجوهه المشروعة، وينفقه في وجوهه المشروعة، دون تبذير أو تقتير، وهو حريص على تدقيق حسابات بيت المال، وإعطاء كل ذي حق حقه. يتفقد أعمال ولاته ويراقب نهجهم في الحكم وعُرف عنه كراهيته لسفك الدماء .

أولع هشام بالخيل، فكان يشرف على إعداد السباقات في دمشق ومن إصلاحاته : شق قنوات الري حفر الآبار على طريق الحج، وظهرت في عهده صناعة الخز والقטיפية.

حرص هشام على تربية أولاده تربية صالحة، وهو لا ينفك يرسلهم مع الجيوش للغزو وشغلت السياسة الخارجية جانباً مهماً من اهتماماته فقد وجه الجيوش للغزو، وحصن حدود الأمصار وثغورها . فكانت بداه مشغولتان بالمشاريع العسكرية حتى في أكثر المواقع تباعداً.

قد يكون هشام من عباقرة الحكام، لكنه كان على أي حال قديراً دؤوباً على العمل، صادقاً مع نفسه، وناجحاً في حكمه، وتوفي والدولة تنعم بالرخاء .

أحداث الغرب في خلافة هشام



أوضاع الدولة الأموية في عهد هشام

الأوضاع الداخلية

العلاقة مع العلويين

اعتصم الشيعة بالهدوء وقتاً طويلاً حتى كان عهد هشام والواقع أن القضاء على حركة المختارة ثم بقض على المعارضة الكوفية، ولا على التحرك الشيعي فيها ولاشك بأن أعداداً كثيرة من الذين تبعوا المختار قد تحولوا إلى الخط الشيعي، بعد وفاته، وقد ارتبط تحركهم بواقع ما شهدته الكوفة خلال حكم عبد الملك بن مروان ونتيجة للسياسة التي تبناها الحجاج وغيره من ولاة بني أمية، وعليه فقد ركن الشيعة إلى الهدوء النسبي، ولم يقوموا بحركات ناشطة ضد بني أمية والراجح أن الهزائم المتلاحقة والخسائر الجسيمة التي منوا بها من ناحية، وافتقارهم إلى زعامة قوية يلتقون حولها، من ناحية ثانية، هو السبب في ذلك.

ويبدو أن الحركة العلوية عمدت إلى حين سنوح الفرصة، فالثورة على الحكم الأموي لم تخب في نفوس الشيعة، غير أن سلوكهم الذي اشتهروا به، وهو الحماس الزائد في أول الأمر، ثم التخاذل قبل تحقيق الهدف، لم يزل يلازمهم، وكان هذا حالهم مع قائد الحركة زيد بن علي الذي خرج في عهد هشام.

كان زيد من كبار زعماء آل البيت وعلمائهم، وهو لا يفتأ يذكر الخلافة ويتمناها ويرى أنه أهل لها وأحق بها. فخشيته هشام بن عبد الملك، وحتى يُوقع به اتهمه بoudice لخالد بن عبد الله القسري، ولما ظهرت براءته أخلي سبيله، فأقام في الكوفة يدعو الأنصار من الشيعة. فالتفوا حوله .

كان من الطبيعي يرصد هشام تحركاته عن كتب، ثم اعتبر أن وجوده في الكوفة يشكل خطراً على أمن الدولة، فأمر عامله على العراق يوسف بن عمر أن يطرده منها.

قرر زيد التوجه إلى المدينة، وسار إليها، لكن أهل الكوفة تبعوه في أربعين الغاء وحلوه على العودة إليها وترؤسهم للقيام بانتفاضة ضد النظام، إلا أنه أبدى شكوكه، في بادئ الأمر، وخشي أن يخذلوه كعادتهم ثم اقتنع بضرورة العودة بعد اطمئنانه لكلامهم.

وتعلقت الشيعة به والتفت حوله جموع من أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان، وبلغت أخباره والي العراق يوسف بن عمر الذي أدرك خطورة الوضع، وقرر أنه لا بد من القيام بعمل ما لوقفه عند حده .

كان زيد في غضون ذلك، قد واعد أصحابه على الخروج في الليلة الأولى من شهر صفر عام ١٢٢ هـ شهر كانون الثاني في عام ٧٤٠م ، لكن يوسف بن عمر كان الأسرع إلى التحرك فأمر عامله على الكوفة الحكم بن أبي الصلت، أن يضع حداً لحركته. فدعا هذا الوالي الناس إلى اجتماع في المسجد قبل خروج زيد بيوم واحد، وهذه كل من يتخلف منهم، فلما اجتمعوا حيهم .

وأضحى زيد مهيب الجناح فلم يجد معه سوى مائتين وثمانية عشر رجلاً ممن بايعوه. وواجه مع أصحابه القلائل قوات الوالي في شوارع الكوفة وأزقتها، فأصابه سهم، وتوفي متأثراً بجراحه، فدفنه أصحابه في ساقية وأجروا الماء على قبره خوفاً أن يمثل به. وقد دل أحد العبيد يوسف بن عمر على مكان القبر، فنبشه وأخرج الجثة وصلبها في كناسة الكوفة، وظلت مرفوعة حتى أمر الوليد بن يزيد، بعد ذلك، بحرقها، وأذرى رمادها في الرياح على الفرات .

وهكذا كان مصير زيد كمصير جده الحسين بفعل خذلان أهل الكوفة له. أحدث مصرعه تغييراً في سلوك بعض أتباعه الذين وعدوه بالمساعدة ولم يقوا وعدهم، فأضحوا أنصاراً مخلصين له، وسموا أنفسهم باسمه ((الزيدية)). فنشأت منذ لك الوقت فرقة شيعية أخرى انتشرت انتشاراً واسعاً كمذهب فقهي.

الأوضاع الخارجية

١ - جبهة المشرق

شهدت جبهة المشرق اضطرابات خطيرة في عهد هشام أدت إلى تقلص الممتلكات الإسلامية في بعض المناطق، وذلك بفعل عدم كفاءة الولاة وسوء تصرفهم، وإحجام بعض الجماعات العربية عن الاشتراك في الغزوات.

فقد حدث في عام (١١٠ هـ / ٧٢٨ م) أن أرسل والي خراسان أشرس بن عبد الله السلمي إلى أهل سمرقند وبلاد ما وراء النهر ممن لا يزالون على دينهم يدعوهم إلى الإسلام على أن يعفوا من دفع الجزية. فلقبت دعوته استجابة أكبر مما كان يتوقع. وكانت النتيجة أن هبط الخراج وأضحى من العسير تدبير المال اللازم لتصريف شؤون الحكم، وشعر الوالي بذلك، فكان لابد من عمل شيء لإعادة التوازن إلى الخزينة، فكتب إلى حاكم سمرقند أن انظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن، فارفع خراجه.

لكن محاولة الجباية من المتحولين حديثاً إلى الإسلام واجهت معارضة شديدة، و دفعت بهؤلاء للجهر بسخطهم والارتداء في أحضان خاقان الترك. وتعاون الطرفان الطرد المسلمين . البلاد، واصطدموا بهم . أمل، لكن لم يحسم أي طرف الوضع لصالحه، لذلك دخل الطرفان في مفاوضات أسفرت عن اتفاق يقضي بانسحاب المسلمين من بعض بلاد ما وراء النهر بما فيها بخارى .

وبفعل تراجع المسلمين واضطراب الوضع في خراسان عزل الخليفة هشام أشرس بن عبد الله السلمي، وولى مكانه الجنيد بن عبد الرحمن المري، وذلك في عام (١١١ هـ / ٧٢٩ م) ويبدو أنه لم تكن لدى هذا الوالي خبرة سابقة في محاربة الأتراك على هذه الحدود الجبلية الوعرة ، لذلك ارتكب اعطاء تكتيكية الثناء اصطدامه، كانت نتيجتها أن أوقع بالمسلمين في مأزق عسكرية لم يخرجوا منها إلا بشق النفس، بالرغم من أنه استعاد بخارى وبعض المناطق التي انسحب منها المسلمون في عهد سلفه . فعزله الخليفة عن ولاية خراسان في عام (١١٦ هـ / ٧٣٤ م) وولى مكانه عاصم بن عبد الله الهلالي.

وعمد الخليفة إلى إحداث تنظيمات إدارية جديدة في خراسان بهدف معالجة الأوضاع المتردية، خاصة ما يتعلق منها بوضع القبائل العربية، بعد إحجام غالبيتها من الانضمام إلى الغزوات بفعل حياة الاستقرار التي فيها أتباعها فأمر واليه أن يُسقط للقبائل هؤلاء من الديوان، وأن يكتفي بتجنيد خمسة عشر ألفاً الموالية بالسكن داخل مرو، وهي مركز الولاية، في حين نقل القبائل المعارضة إلى أماكن جديدة خارج المدينة. وحتى يدعم مركزه العسكري، فقد أمدّه الخليفة بقوة عسكرية تقدر بعشرين ألفاً لسد الفراغ الناشئ عن إحجام العرب، أقامهم في مرو.

تراوحت ردود فعل القبائل العربية في خراسان تجاه هذه الخطة ، بين التأييد الكامل والرفض المطلق وفقاً لمصلحة كل قبيلة. فاعتبرت القبائل التي وضعت خارج مرو أن تصرف الوالي هو في الحقيقة بمثابة النفي والإبعاد، وأن خروجهم من مرو، سوف يحرمهم من المكاسب الوفرة، التي حصلوا عليها نتيجة إقامتهم الطويلة في هذه المدينة، التي سينالها غيرهم من القادمين الجدد.

وقد حصل أول تمرد عسكري ضد هذه السياسة في عام (١١٦ هـ / ٧٣٤م) بقيادة الحارث بن سريح الذي زحف نحو بلخ لابساً السواد تعبيراً عن نقمته على بني أمية، داعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا.

وتحالف هذا القائد مع خاقان الترك، وانضم الهياطلة إلى هذا التحالف بالرغم من اختلاف أهداف كل طرف، إلا أن مصلحة مشتركة جمعت هؤلاء الأطراف وهي العداء لبني أمية، واصطدمت قوى التحالف مع الوالي، وهاجمت مرو .

ويبدو أن التقاف القبائل العربية المتمردة حول الحارث كان مرحلياً وقد تأثر بوجود الهياطلة الأعداء في صفوف الوالي، كما انضم الموالي إلى صفوف الجيش الأموي تحسباً من خطر غزو الهياطلة لبلادهم. ثم انفرط عقد التحالف بانسحاب الهياطلة أيضاً وتراجع خاقان الترك.

ويبدو أن عاصماً أدرك، بعد تجربته القصيرة في خراسان، أن لآل البيت نفوذاً واسعاً فيها (٢) وأنها لا تصلح إلا إذا ضمت إلى العراق القريب من مركز القيادة، فكتب إلى هشام بذلك. اقتنع الخليفة بوجهة نظر عامله، فعزله عن خراسان، وضمها إلى خالد بن عبد الله القسري مع العراق، وولى عليها أخاه أسداً.

تابع أسد الحرب ضد الحارث، وقاتل الترك في طخارستان وانتصر عليهما، كما حارب الخارجين، فحقق الأمن، خاصة على الطرق التجارية. وتوفي في بلخ في عام (١٢٠ هـ / ٧٣٨ م). فولى هشام بعده شيخ مضر نصر بن سيار الذي تابع نشاط سلفه فأعاد السيادة الإسلامية إلى حوض نهر سيحون، وحلّ مشكلة الخراج فحول الجزية من المسلمين وحملها غير المسلمين ممن لم يكونوا يؤدونها، وأزال شكاوى مسلمي مرو من جور النظام الضرائبي المفروض عليهم، فبلغت خراسان في عهده درجة من الأمن والرخاء لم تعرفها من قبل. ورغم ذلك فقد ثبت أن استعادة النظام التام واستمراره ضرب من المستحيل، بل إن نصراً عجز عن التوفيق بين العصبيتين العربيتين، وابتدأت متاعبه الحقيقية بعد وفاة هشام في عام (١٢٥ هـ / ٧٤٣ م).

أما ولاية السند، فقد آلت إلى الجنيد أيضاً، وقد تمكن من استرداد مدينة برهمناباد، وقتل جاي سنك، وبلغت غاراته شرقي الهند وجنوبه الشرقي (٥). هذا وقد تقلص النفوذ الإسلامي في هذه البلاد بعد ذلك، بفعل خروج المسلمين من بلاد الهند، وانهماك الخلافة الأموية بأمورها الداخلية بعد اشتداد الحركة العباسية.

ب . جبهة أرمينيا وأذربيجان

تعاقب على إمارة هذه الجبهة عدة أمراء مسلمين وشهدت اعتبار من عام (١٠٧ هـ / ٧٢٥ م)، ضغطاً عسكرياً إسلامياً، خاصة المنطقة المحيطة ببلاد الخزر، وكانت النتيجة: تحجيم قوة الترك وإخضاع بعض المدن والقرى منها مدينة خلاط .

ج - الجبهة البيزنطية

استمر النضال بين المسلمين والبيزنطيين في عهد هشام الذي أحيا أعمال الجهاد، وقد اتخذ هذا الصراع صفة الحرب المقدسة من جانب البيزنطيين.

اهتم هذا الخليفة في بادئ الأمر بإنشاء الحصون في مناطق الحدود لامنصاص الغارات البيزنطية من جهة، واتخاذها قواعد انطلاق لغزو الأراضي من البيزنطية من جهة أخرى، فأنشأ ستة حصون على الطريق العسكري الممتد بين أنطاكية حتى المصيصة كما رمم حصن ملطية.

وبعد عام من خلافته، درج المسلمون على الإغارة سنوياً على المنطقة وفتحوا عدة مدن وحصون منها خنجره، خرشنة، قيصرية وصمالو، وحاصروا عدة مدن أخرى منها دور يليوم ونيقية وطوانة وبرجمة. كما نفذوا حملات بحرية إسلامية ضد الجزر مثل قبرص وصقلية.

كان رد الفعل البيزنطي تجاه هذا النشاط الإسلامي محدوداً بفعل الظروف الداخلية التي كانت تمر بها الإمبراطورية وتتمثل بالصراع مع عبدة الأيقونات مما أعطى الفرصة للخليفة لمواصلة ضغطه العسكري.

حدث في عام (١٢٢٢هـ / ٧٤٠م) أن توغلت قوة إسلامية باتجاه آسيا الصغرى وحاصرت ريبض أكرن (أكرونيون) القريبة من عمورية، فخرج ليو الثالث بنفسه على رأس جيش بيزنطي للتصدي للمسلمين، واصطدم بهم في معركة شرسة حقق فيها انتصاراً واضحاً، وتكبد المسلمون خسائر جسيمة، وارتبطت بهذه المعركة قصة البطل التركي المعروف بعبد الله البطل الذي قتل أثناء القتال ودفن في قرية تقع جنوب أسكي شهر ولا يزال قبره قائماً حتى اليوم.

تعد هذه المعركة آخر المعارك الكبرى بين الأمويين والبيزنطيين، وترتب عليها أن جلا المسلمون عن الجزء الغربي من آسيا الصغرى، وتراجعوا نحو الشرق، كما تراجعت حدة الحملات المندفعة، وما حدث من نشاط عسكري بين أعوام (١٢٣ - ١٢٥ هـ / ٧٤١ - ٧٤٣ م) لم يخرج عن كونه صوائف عادية لم تترتب عليها أية نتائج هامة .

وما جرى من تخليص القسطنطينية . هجمات المسلمين، وارتداد هؤلاء عن آسيا الصغرى، يعتبر خاتمة مرحلة من مراحل النضال بينهم وبين البيزنطيين، وظلت المنطقة بفضل نظام الثغور البيزنطي، جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية البيزنطية .

د- جبهة شمالي أفريقيا

عانى الأمويون على هذه الجبهة، في عهد هشام، من عداء البربر بعد أن استقطبهم الخوارج، وقد نقموا على العرب لاستثمارهم بالمناصب والامتيازات في حين تحملوا هم العبء الضريبي وأبعدوا عن مراكز السلطة.

وقد تطور هذا العداء إلى ثورة عارمة في عام (١٢٢ هـ / ٧٤٠م) بفعل اشتطاط والي طنجه في طلباته المالية. وتغلب الثائرون على عدة جيوش أموية أرسلت إلى المنطقة لاختصاصهم، حتى كان عام (١٢٢ هـ / ٧٤٠م) حين أرسل الخليفة جيشاً جراراً بقيادة عامله على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي، انتصر على الثائرين في معركتي الأصنام والقرن، وأخضعهم، واستتب الأمر للأمويين .

هـ- جبهة الأندلس

الواضح أنه بات لزاماً على المسلمين في الأندلس أن يدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم نظراً لضعف الحكومة المركزية في دمشق، وبعد المسافة، وانهماك حكام شمالي أفريقيا بشؤونهم الداخلية.

وكانت بدايات المرحلة الأولى من تاريخ إسبانيا الإسلامية كولاية مرتبطة إدارياً بالحكم المركزي في دمشق قد اقترنت بعدة محاولات توسعية وراء جبال البرينيه حيث بلاد غالة والفرنجة.

وتمثل محاولة السماح بن مالك الخولاني الاندفاع وراء البرينيه منذ عام (١٠٠هـ / ٧١٨ م) البداية الجدية للحركة التوسعية . فاجتاح مقاطعة سبتمانيا بما فيها المدينة الساحلية ناربون واستولى عليها، ثم توغلت قواته في إقليم أكيثانيا ووصلت إلى تولوز، وأغارت على مقاطعة البروفانس، واصطدمت بالدوق أودو حاكم اكيثانيا بالقرب من تولوز الذي انتصر في المعركة وكان السماح من بين القتلى، فتولى عبد الرحمن بن . عبد الله الغافقي قيادة الجند، وقاد بنجاح عملية الانسحاب والتراجع إلى ناربون.

وتعتبر محاولة خلفه عنيسة بن سحيم الكلبي من أوسع المحاولات الإسلامية الغزو بلاد غالة فهاجم إقليم سبتمانيا وفتح فرقسونة ونيم وأوتون، وهاجم إقليم البروفانس وبرجنديا، ووصل إلى حوض نهر الرون، واجتاح عدة مدن أهمها ليون وماسون وشالون وسانس التي لا تبعد أكثر من مائة ميل عن باريس، لكن جيشاً من الفرنجة قطع عليه خط الرجعة وأحاط بقواته وانتصر عليه، واستشهد عنيسة في المعركة في شهر شعبان عام (١٠٧ هـ / ٧٢٥ م) .

أدى مقتل عنيسة إلى تقهقر المسلمين من جديد، ووقف تيار التوسع مدة خمسة أعوام حتى كان عام (١١٢ هـ / ٧٣٠م) عندما تولى عبد الرحمن الغافقي زمام الأمور .

يعتبر الغافقي من ألمع القادة المسلمين. تمتع بمواهب عسكرية كبيرة، فضلاً عن مقدرته كحاكم، ونظريته المتساوية إلى المسلمين من العرب والبربر، وإنصافه المسيحيين في الأندلس، مما جعله أمل القيادات والفئات الأندلسية في تحقيق الاستقرار الداخلي والتوسع في الخارج .

وبعد أن وطد النظام في أرجاء البلاد، وحصن الثغور الشمالية، تطلع إلى الخارج، وظهر كقائد محترف استأثرت به نزعة الفتح وراء جبال البرينيه . والواقع أن حملته التي عبر بها هذه الجبال كانت نموذجاً مختلفاً عن الحملات السابقة في الإعداد النفسي، والتجهيز المادي، والبعد الاستراتيجي لسياسة الفتح.

كان الهدف الأول للغافقي القضاء على الدوق أودو الذي شكل ، وفقاً لتقديراته، العقبة الرئيسية أمام التمدد الإسلامي في بلاد الفرنجة خاصة بعد تحالفه مع شارل بن ببين، حاجب القصر في مملكة الفرنجة. فاصطدم به في معركة على نهر الدردوني وتغلب عليه، والتجأ الدوق إلى بلاط الفرنجة وتعاون مع شارل في حرب المسلمين.

نتج عن هذه المعركة أن انتشر المسلمون في مقاطعة أكيثانيا وتقدموا حتى مدينة تور. وكان ذلك آخر امتداد منظم لهم في أوروبا، لأن شارل خشي أن يدخل المسلمون بلاد الفرنجة نظراً لاقترابهم من حدودها، لذلك هب للدفاع عن القارة الأوروبية تجاه زحهم.

كان الغافقي آنذاك يعاني من صعوبات تموينية ونقص في العديد بفعل ابتعاده عن قواعده، كما عانى من عدم تجانس الجيش الذي تحكمت فيه العصبية الأندلسية المتصارعة.

أما الفرنجة فكانوا يفوقون المسلمين عدداً وتنظيماً وتماسكاً وتصميماً على وقف تيارهم الجارف.

وعمد شارل إلى تنفيذ استراتيجية عسكرية قائمة على تأخير اللقاء مع المسلمين بهدف إنهاء قواهم نتيجة انتقالهم السريع من معركة إلى معركة، ومن مكان إلى مكان وانشغالهم بالغنائم التي لا بد وأن تبطيء تقدمهم. وأخفى قواته عن أعينهم.

وفعلاً، عجزت عيون الغافقي عن معرفة أي شيء عن استراتيجيته هذه، وبذلك يكون شارل قد حدد زمان ومكان المعركة ليضمن النصر.

وحدث اللقاء الحاسم بين الطرفين في (شهر رمضان عام ١١٤ هـ/ شهر تشرين الأول عام ٧٣٢م) في السهل الواقع بين تور وبواتيه، في المكان المعروف ببلاط الشهداء، ودارت بينهما رحى معركة عنيفة هي معركة التصدي بين الغافقي وشارل حيث نجح الثاني في تحقيق الانتصار بالرغم من استبسال المسلمين في المعركة وقتل الغافقي بعد قتال بطولي على أثر إصابته بسهم أودى بحياته . فتفرقت كلمة المسلمين واختلف رؤوساء الجند واضطروا إلى الانسحاب إلى قواعدهم في سبتمانيا.

هذا وسميت هذه الموقعة في المصادر العربية بمعركة بلاط الشهداء لكثرة ما استشهد فيها من المسلمين، ونسبة إلى طريق روماني قديم دارت عنده هذه المعركة. والبلاط في اللغة العربية، هو الطريق المرصوف المبلط. أما المصادر الأوروبية فسمتها موقعة تور أوتور - بواتيه.

تعد معركة بلاط الشهداء من المعارك الحاسمة في التاريخ، إذ إنها أوقفت المد الإسلامي باتجاه قلب أوروبا، وتبددت مخاوف الأوروبيين واستحق شارل عن جدارة لقب المطرقة، وصار يعرف بشارل مارتل بعد أن أطلق عليه البابا غريغوري الثالث هذا اللقب.

لم يتعقب شارل مارتل فلول الجيش الإسلامي خشية أن يكون انسحابهم تكتيكاً للإيقاع به، بالإضافة إلى أنه منى هو أيضاً بخسائر بالغة جعلته عاجزاً عن تنظيم عملية مطاردة، وتراجع باتجاه الشمال.

لم يحاول المسلمون، بعد هذه الموقعة، الاستلاء على بلاد الفرنجة إذ ان الخسارة جعلتهم اقل جراءة على غزو شمالي فلانسا، و اخذوا يتراجعون الى الاندلس حتى لم يبق لهم فيها وراء البرينييه الا مقاطعة سبتمانيا.

((ولاية العهد - وفاة هشام))

كان ولي العهد، بالاستناد إلى وصية يزيد بن عبد الملك، هو الوليد بن يزيد. فيدا لهشام أن يخلعه ويولي مكانه ابنه مسلمة لكنه فشل في تحقيق ذلك. وقد انتهى عهد هشام والوليد يعيش بعيداً بالأزرق على ماء له بالأردن.

توفي هشام يوم الأربعاء (لستِ خلون من شهر ربيع الآخر عام ١٢٥ هـ / شهر شباط عام ٧٤٣م) وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأياماً .

الوليد الثاني - يزيد الثالث - مروان الثاني

الوليد بن يزيد الوليد الثاني (١٢٥ - ١٢٦ هـ / ٧٤٣ - ٧٤٤ م)

التعريف بالوليد الثاني

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو العباس الأموي الدمشقي. بويغ له بالخلافة وهو بدمشق بعد وفاة عمه هشام بعشرة أيام. نشأ الوليد نشأة عابثة وتبالغ بعض المصادر في وصف سلوكه السيء في حين تنفي بعض المصادر الأخرى عنه ذلك وتصفه بالخليفة المجمع عليه .

ويبدو أن وراء حملة التشهير التي تعرّض لها أهدافاً سياسية. فقد استغل عمه هشام ما اشتهر به من العبث فسهل له سبل اللهو والمجون آملاً

- أن ينساق في هذا المسلك وينشغل عن المطالبة بالخلافة .
 - إيغار صدور الناس عليه بتكوين رأي عام معارض .
 - أن يجره هذا الانسياق في سلوكية مذمومة، تبرّر خلعه من ولاية العهد، بفعل أن هشاماً أراد أن يكون الأمر من بعده لابنه ،مسلمة، وقد صادف هذا الأمر هوى في نفس الوليد الذي كان ممن يحبون اللهو ويلاحظ أن الحملة التشهيرية ضده بدأت في أثناء خلافة عمه هشام، في الوقت الذي كان هو ولياً للعهد ورفض طلب عمه أن يتنازل عن ولاية العهد لصالح ابنه مسلمة .
- ونتيجة للضغط الذي تعرّض له، خرج الوليد من دمشق، ونزل قصر الأزرق في الصحراء. ولم يزل مقيماً فيه حتى توفي هشام ."

أعمال الوليد الثاني - نهايته

أراد الوليد الثاني أن يجعل عهده مناقضاً لعهد عمه، لذلك استهله بزيادة أعطيات الجند، وساعده على ذلك وفرة الأموال التي تركها هشام، فاستغلها في عمل الخير وسار في الناس سيرة حسنة فأمر بإعطاء خادم لكل من الزمنى والمجذومين والعميان، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيال المسلمين، وزاد في أعطيات الناس لا سيما أهل الشام والوفود ، وكان كريماً جواداً معطاءً.

ورغم هذه السيرة الحسنة ظل الوليد الثاني على سياسته العدائية تجاه أبناء عمه وتجاه بعض الولاة ذوي العصبية في الدولة فانتقم من كل من أعان هشاماً عليه وبصفة خاصة أبناء هشام أنفسهم. فقد ضرب ابن عمه سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته، ونفاه إلى عمان فحبسه فيها ، كما سجن الأقدم وهو يزيد بن هشام وبائع لولديه الحكم وعثمان لولاية العهد وكانا دون البلوغ .

وكان للعصبية القبلية دور بارز في تكوين رأي عام معارض ضده وهو القيسي الاتجاه والسلوك . فقد انتقم من خالد بن عبد الله القسري الذي ساندته القوى اليمينية، فسلمه إلى يوسف بن عمر الثقفي، الرجل الأكثر انسجاماً مع أفكاره وتوجهاته، فقبض عليه وحاكمه ثم أعدمه في الحيرة، فأوغر بذلك صدور اليمينية عليه، وكانوا يشكلون قوة كبيرة في الشام وخراسان، فانضموا إلى يزيد بن الوليد الأول ووقفوا خلفه يحرضونه على الثورة.

وخرج في عهد الوليد الثاني يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بالجوزجان من بلاد خراسان في عام ١٢٥ هـ / ٧٤٣م حاملاً شعار إنكار الظلم الذي وقع على الناس وما شملهم من الجور والاستبداد فسير إليه والي خراسان، نصر بن سيار، سلم بن احوز المازني، فطارده حتى قتله عند الأنبار.

وسرعان ما اندلعت الثورة ضد الوليد الثاني في دمشق، بزعامة يزيد بن الوليد بن عبد الملك وسانده اليمينية بكل ثقلها، وبدا الصراع وكأنه قبلي .

وأدرك بعض أبناء الأسرة الأموية خطورة الوضع وما ينطوي عليه من كوارث قد تؤدي بالبيت الحاكم إلى الزوال، فحاولوا إيقاف التدهور، أو الحد من خطورته، إلا أنهم فشلوا في ذلك، مما دفع العباس بن الوليد بن عبد الملك إلى التعبير عن إدراكه العميق لحجم الكارثة فقال : يا بني مروان إني أظن الله قد أذن في هلاككم .

وزحف يزيد على دمشق واستولى عليها وأعد جيشاً بقيادة عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك لقتال الوليد الثاني، وكان متحصناً في البخراء على حدود تدمر، وتمكن هذا الجيش من اقتحام الحصن وقتل الخليفة.

والواقع أن هذه الأحداث، شكلت بداية النهاية للحكم الأموي، بفعل انقسام البيت الأموي على نفسه، وفقدانه تأييد كتلة عربية كان لها دور كبير في تأسيس دولة الخلافة الأموية، وهم عرب اليمن في الشام وخراسان الذين ساندوا الثورة العباسية .

يزيد بن الوليد الأول: يزيد الثالث(١٢٦هـ / ٧٤٤م)

التعريف بيزيد الثالث

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو خالد، أمير المؤمنين . بويع له بالخلافة في بادئ الأمر في قرية المزة من قرى دمشق، ثم دخل هذه المدينة منتصراً وغلب عليها، وأرسل جيشاً اصطدم بابن عمه الوليد الثاني وقتله، واستحوذ على الخلافة في (أواخر جمادى الآخرة عام ١٢٦هـ/ شهر آذار عام ٧٤٤ م) ، وخطب الناس مبرراً قتل الخليفة وشارحاً نهجه في الحكم.

أظهر يزيد الثالث التقوى خلال حكمه، وتشبه بعمر بن عبد العزيز وسمي بالناقص لأنه أنقص أعطيات الجند والناس ما زاده الوليد الثاني، معتقداً بأنها مرتفعة، وأكثر مما يستطيع بيت المال تحملها ؛ وردها إلى ما كانت عليه في عهد هشام.

الأوضاع العامة في عهد يزيد الثالث

تعد الأوضاع العامة للخلافة أثناء ولاية يزيد الثالث، استمراراً لفاتحة الاضطرابات، التي ابتدأت على إثر مقتل الوليد الثاني، والتي أدت إلى تصدع بني أمية، ومن ثم زوال دولتهم .

وقد مرت أحداث عهده في مرحلتين متميزتين : تضمنت المرحلة الأولى أحداث ذيول مقتل الوليد الثاني، وما أثارته من ردود فعل داخل البيت الأموي، في حين تضمنت المرحلة الثانية صدى لأحداث التغييرات في المناصب الإدارية وما كان لها من آثار سلبية على مسيرة الحكم من جهة، وانعكاسات سيئة على الأوضاع الداخلية، من جهة أخرى.

والواقع أن يزيد الثالث لم يكن الشخصية التي يجتمع حولها كافة أفراد البيت الأموي. ويبدو أن عدم وجود مثل هذه الشخصية، بالإضافة إلى تفشي روح الفردية كانا من الأسباب البارزة في استمرار الصراع.

ما إن اعتلى يزيد الثالث سدة الخلافة حتى قامت المعارضة العنيفة في وجهه وتزعمها أبناء عمومته، فقد خرج عليه سليمان بن هشام بعد أن فر من سجنه، وجاء إلى دمشق حيث راح يهاجم الخليفة ويلعنه وينعته بالكافر.

وخرجت الأقاليم على خلافته فقد خرج أهل حمص ليأخذوا بثار الوليد الثاني، ورفضوا بيعة الخليفة، وانضم إليهم يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية، وأبو محمد السفيناني الذي بايعوه بالخلافة، وقرروا الزحف على دمشق، لكن الخليفة كان الأسرع إلى التحرك، ونجح في التصدي لأهل حمص، وأجبرهم على الخضوع والبيعة له.

وقبض على الأميرين الأمويين وساقهما إلى دمشق وسجنهما.

وواجه يزيد الثالث حركة أخرى قام بها أهل فلسطين الذين بايعوا يزيد بن سليمان بن عبد الملك، كما خرج أهل الأردن الذين بايعوا محمد بن عبد الملك، إلا أن الخليفة تمكن من إخضاع الثائرين.

وهكذا زاد مقتل الوليد الثاني في اشتعال حدة الصراع بين أفراد البيت الأموي، وكان من المستحيل رَأب الصدع الذي أخذ يتسع في الجسم الأموي .

وعمد يزيد الثالث، بعد أن تولى الحكم إلى عزل الولاة الذين عينهم عم هشام، وولى عمالاً يثق بهم. فقد عزل يوسف بن عمر عن العراق وولاها منصور بن جمهور، مبرراً إقدامه على هذه الخطوة بأنه يريد

للعراق حاكماً ذا دين وخلق ليقوم عمه العدل ويرفع الظلم عن الناس .وقد أثار هذا التغيير ردود فعل معترضة من بعض أتباع الخليفة مثل يزيد بن حجرة الغساني، كما حاول الوالي المعزول إثارة.

الاضطرابات ضد الخليفة عن طريق إثارة القبائل ضد بعضها البعض، إلا أنه فشل في ذلك وغادر العراق إلى البلقاء . وأراد يزيد الثالث أن يبسط سلطانه على الأقاليم البعيدة في المشرق، لاسيما خراسان و السند و سجستان، فامتتع عليه نصر بن سيارحاكم خراسان الذي راودته فكرة الاستقلال عن الحكم المركزي وبايعه أتباعه. وأخفق والي العراق منصور بن جمهور في ترويضه .

واشتد في هذا الوقت أمر مروان بن محمد حاكم الجزيرة وأذربيجان وأرمينيا، الذي رفض في بادئ الأمر الاعتراف بالخليفة الجديد، ثم دخل معه في مفاوضات للتفاهم على أمر الخلافة وولاية العهد. ولما أوشك الرجلان على الاتفاق توفي يزيد فجأة في (شهر ذي الحجة عام ١٢٦ هـ / شهر أيلول عام ٧٤٤ م)، وقام بالأمر بعده أخوه إبراهيم بن الوليد. إلا أن الأمر لم يستقم له ، فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالإمارة، وتارة لا يسلم عليه بواحد منها.

وكان من الطبيعي أن يرفض مروان بن محمد، المتطلع نحو الخلافة، الاعتراف بخلافة إبراهيم، وأعلن تأييده لولدي الوليد الثاني الحكم وعثمان. وقد اعتمد إبراهيم في صراعه مع مروان على مساندة اليمينية له في حين تلقى مروان مساعدة القيسية، وهذا سبب كاف لتأجج العداوة بينهما.

وراح مروان، بما عرف عنه من سرعة وحزم في الأمور، يزحف على دمشق من حزان على رأس قواته . واستولى، أثناء زحفه على قنسرين وحمص واصطدم بجيش أرسله الخليفة للتصدي له في عنجر بين بعلبك ودمشق، وانتصر عليه. وفرّ إبراهيم من دمشق عندما بلغه نتيجة المعركة، وقتل قبل فراره الحكم وعثمان ولدي الوليد الثاني حتى لا يتخذهما مروان ذريعة للاستيلاء على السلطة باسميهما، لكن هذا الأخير دخل دمشق ظافراً في عام (١٢٧) هـ (٧٤٥م) وبايعه الناس بالخلافة .

مروان بن محمد الجعدي: مروان الثاني (١٢٧-١٣٢ هـ / ٧٤٤-٧٥٠م)

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي، أبو عبد الملك أمير المؤمنين آخر خلفاء بني أمية بويع له بالخلافة بعد وفاة يزيد الثالث ، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد واستقر له الأمر في منتصف شهر صفر عام ١٢٧ هـ شهر تشرين الأول عام ٧٤٤ م . وعُرف بمروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم. كان صبوراً يصل السير بالسير في محاربة الخارجين عليه .

يعد مروان الثاني من فرسان بني أمية وشجعناهم. ورغم ما تمتع به من إقدام وسداد رأي، إلا أن الظروف شاعت أن تكون نهاية دولة الخلافة الأموية في عهده، وقد لا يكون هو المسؤول عن ذلك، بفعل أن العوامل التي أدت إلى إضعافها وزوالها كانت تفاعل منذ زمن بعيد، وكان قدره أن يصارع تلك الأحداث الجسام التي كانت تعمل ضده.

الأوضاع السياسية في عهد مروان الثاني

أصبح الحكم الأموي بعد مقتل الوليد الثاني يستند على جماعات متنافرة ليس لها هدف يجمعها ويوحد كلمتها. ووجدت في المجتمع الإسلامي تيارات متعددة يرتبط كل منها بفئة أموية، أو يقف موقف المعارض استناداً إلى مصالحه الدنيوية. وطبيعي، نتيجة ذلك، أن تضعف القاعدة وتتفكك ويضطرب رأس الهرم، وتعم الفوضى العاصمة المركزية وعواصم الأطراف. في ظل هذه الأجواء وجد الناقمون على بني أمية، والثائرون على حكمهم والمتآمرون على البيت الأموي، الذين يتهيؤون لانتزاع السلطة منهم، أن الفرصة مؤاتية لإنزال الضربة القاضية لهذه الأسرة الأموية المفككة والمتناحرة فيما بينها.

وهكذا كثرت الاضطرابات وعمت الفتن الأطراف، وظهر المغامرون وطلاب الثروة والجاه، يريدون أن يحققوا ما عجزوا عن تحقيقه حين كانت الدولة متماسكة.

فجماعة العباسيين الذين أخذوا يتحينون الفرص لتوسيع رقعة دعوتهم والتهيؤ للانقضاض على الدولة الأموية الممزقة، وجماعة الشيعة والخوارج، وبعض القوى القبلية المتربصة بالحكم الأموي، تتحين الفرصة للوثوب، وخلع الطاعة، واستلام الحكم، ومن العوامل التي هيأت الجو لقيام الثورات على حكم مروان الثاني نقل العاصمة، والصراع على السلطة، بين أفراد البيت الأموي، والنزاع القبلي.

والحقيقة أنه بعد أن تم الأمر لمروان الثاني واستقر له الحكم في بلاد الشام، أقام بحران وجعلها حاضرتة، وهذا طبيعي بفعل نشأته فيها في ظل غلبة القيسية. وقد أدى ذلك إلى انحراف اليمينية عنه، وانضمامهم إلى الدعوة العباسية. وقد أساء نقل العاصمة من دمشق إلى حران إلى أهل الشام عامة، إذ شعروا بأنهم خسروا المركز الممتاز لدمشق، وما كان يجره ذلك من خيارات تتدفق عليهم، لذا عمدت النقمة بلاد الشام، كان مروان متعصباً لأمويته، وحاول جاهداً أن يتلافى الخلل والاحتفاظ ببقاء الحكم في أسرته، فبايع لابنيه عبيد الله وعبد الله، وحرص على تلاحم مختلف الفئات الأموية، فزوج ولديه من ابنتي عبد الملك، لكن الصراع داخل البيت الأموي قد بلغ حداً مما لا ينفع معه علاج.

اعتمد مروان الثاني على القيسية لأنه قام أساساً يطالب بدم الوليد الثاني، كما أن الجزيرة، مستقر ولايته كانت معقل القيسيين فاعتبرت القبائل اليمينية، التي ألفت وجود حلفائها في السلطة، ذلك تحدياً،

مما دفعها للقيام بانتفاضات ضد السلطة خاصة في فلسطين. وتكمن خطورة هذا الانقسام القبلي الذي قام في ذلك الوقت، في أنه حدث في قلب الدولة الأموية في دمشق. ولهذا كان الاضطراب في بلاد الشام إيذاناً باضطراب أمر الدولة كلها. وكان من الطبيعي أن يواجه مروان التحدي بمثله، إلا أنه حاول في بادئ الأمر، أن يهدئ الخواطر، وأن يبعث الثقة في النفوس، باسترضاء مظهراً بذلك مرونة سياسية، إلا أن الأوضاع السيئة وصلت إلى نقطة اللاعودة وكان العربية المختلفة، كما أظهر حسن نية تجاههم بأن ترك لهم اختيار ولاتهم مظهراً بذلك مرونة سياسته، إلا أن الأوضاع السيئة وصلت إلى نقطة اللاعودة، وكان على مروان الثاني أن يدفع ثمن أخطاء من سبقه من الحكام.

خروج أهل حمص

كان أهل حمص قد بايعوا مروان الثاني وساروا معه إلى دمشق، إلا أنهم حمص خرجوا على حكمه بعد ذلك. والراجح أن خلاقات شخصية هي التي فجرت حركتهم، ذلك أن ثابت بن نعيم الجذامي، أحد القادة المسلمين، كان على خلاف مع مروان منذ ان كان هذا والياً على أرمينيا، فلما ولي الخلافة اختار أهل فلسطين ثابتاً هذا والياً عليهم واعترف به الخليفة تنفيذاً لسياسته الانفتاحية. ويبدو أن الخلاف ظل محتدماً بين الرجلين، فسعى ثابت إلى استقطاب اليمينية في حمص، الذين وقفوا ضد مروان الثاني، ثم تزعمهم وأعلن خروجه واستتجد أهل حمص بالكليبيين في تدمر، فأمدوهم بقوة عسكرية.

حاول مروان الثاني، في بادئ الأمر، إصلاح الأحوال بالطرق السلمية، إلا أن أهل حمص لم يرتدعوا عندئذ اضطرت الخليفة أن يخرج بنفسه لوضع حد لحركتهم. وكانت له مع الحمصيين وقائع حاسمة انتصر فيها عليهم، وهدم أسوار مدينتهم.

خروج أهل الغوطة

في الوقت الذي كان فيه مروان الثاني منهمكاً في إخماد حركة أهل حمص، قامت حركة أخرى ضد حكمه في الغوطة، وقد ولي أهلها عليهم زعيماً يمينياً هو يزيد بن خالد القسري، وحاصر الخارجون مدينة دمشق، إلا أن مروان الثاني تمكن من فك الحصار عن المدينة، وطارد الثائرين وأحرق المزة وقرى اليمانية وقتل يزيد بن خالد.

خروج أهل فلسطين

تعد الانتفاضة التي قامت في فلسطين ضد حكم مروان الثاني من أخطر الحركات المناهضة التي شهدتها حكم هذا الخليفة. والواقع أن ثابت بن نعيم الجذامي استمر في عداوته لمروان وراح يحرض قرى

بلاد الشام على نبذ طاعته ، ثم تمادى في معارضته حتى خلعه وقاد أهل فلسطين في حركة ضد النظام الأموي .

تحرك مروان الثاني بسرعة وعاجل ثابت بقوة عسكرية بقيادة أبي الورد بن الكوثر الذي تمكن من القضاء على الثورة، ووقع ثابت في أسر والي فلسطين الذي عينه مروان الثاني، فأرسله إلى الخليفة حيث قتله .

الاضطرابات في العراق

أ - حركات الخوارج

إذا كانت بلاد الشام قد رفعت راية العصيان ضد حكم مروان الثاني، فطبيعي أن تقوم في العراق حركات أشد خطراً، خاصة وأنه الإقليم الأكثر تشنجاً من الحكم الأموي، منذ أن أصبحت بلاد الشام مركز السلطان واشتهر العراق بأنه مركز الشيعة والحركة الخوارجية، وتستعر في نفوس أهله عصبية إقليمية غدت بموجبها الهوية العراقية، منطلقاً لتطرف لا حدود له ضد كل نزعة شامية .

ووجد الخوارج في تصدع بني أمية فرصة للانتفاضة على الحكم الأموي، وتوجيه ضربة قاسية إلى مروان الثاني قد تنهي حكم أسرة طالما مقتوها وأرادوا التخلص منها، وتميزت حركتهم في هذه الفترة بالشمولية . فبعد أن كانت قلة العدد طابع جيوشهم، أضحوا الآن يقاتلون بأعداد جماهيرية كبيرة .

وتعددت حركاتهم بعد مقتل الخليفة الوليد الثاني في عام (١٣٦هـ / ٧٤٤ م) كان مسرحها العراق وشبه الجزيرة العربية، حيث دخلوا الكوفة، واستولوا على البصرة، وعلى حضرموت إلا أن مروان تصدى لهم وهزمهم في أكثر من معركة في نواحي كفرنوثا من أعمال ماردين، وفي عين التمر، وفي جيرفت، وفي وادي القرى شمالي الشام، وتغلب عليهم واجلاهم عن العراق واستعاد سيطرته على الحجاز واليمن.

ب - الحركات العلوية

تزعّم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر آخر حركة قام بها الشيعة ضد الدولة الأموية، وانضم إليه شيعة الكوفة وبايعوه بالخلافة، وخرج في شهر محرم من عام ١٢٧ هـ / شهر تشرين الأول عام ٧٤٤ م) لقتال أهل الشام في الحيرة .

ويبدو أن الشيعة خذلوه عندما نشب القتال، وفروا من أرض المعركة، ولم يثبت معه سوى ربيعة والزيدية، فاضطر للتراجع إلى الكوفة، وتبعه الأمويون. وشهدت شوارع المدينة مجابهات عنيفة بين الطرفين. وتمكن الجيش من السيطرة على الموقف ومنحه والي الأموي، عبد الله بن معاوية الأمان

والإذن بالانسحاب، فارتحل إلى فارس حيث أعاد تنظيم صفوف قواته وقوي أمره بما انضم إليه من الموالي والعبيد والعباسيين الثائرين على الحكم الأموي والأمويين الناقمين على مروان الثاني، وكل طامع في عطية أو وظيفة، وبقايا الخوارج الذين طردهم مروان الثاني من الموصل.

ويبدو أن هذا الحشد الذي التفّ حوله كان غير متجانس، وواضح أن هدفه تشكيل جبهة مقاومة لا يجمعها إلا العداء لمروان الثاني . لذلك لم يتم له الاستمرار طويلاً، وسرعان ما انفرط عقده على إثر الهزيمة القاسية التي مني بها أمام قوات مروان الثاني عند مرو الشاذان في نهاية عام ١٢٩هـ / ٧٤٧م، وانهارت آمال عبد الله وتطلعاته وفر إلى سجستان وبلغ هراة آملاً أن يجد نصيراً في أبي مسلم ، لكن هذا الأخير قبض عليه وقتله.

الحركات الأموية الداخلية

حركة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز:

يبدو أن الفوضى التي آلت إليها أوضاع الأسرة الأموية حركت المطامع في نفوس أفرادها، ووجد كل منهم نفسه صاحب حق في هذا الأمر، كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والياً على العراق ومركزه الكوفة. والراجح أنه كان ذا نزعات استقلالية، إذ بعد تغلبه على عبد الله بن معاوية، أضحى له من السلطان والقوة ما بدا له أن باستطاعته الانتفاضة على حكم مروان الثاني. فنقض بيعته له، وقد اعتمد في تحركه على القبائل اليمنية من أهل الشام المقيمين في الكوفة والحيرة الذين ساءهم خضوع الشام للنفوذ القيسي الم يعرف مروان الثاني هذه الانتفاضة التفاتة جدية، في بادئ الأمر، فترك عبد الله بن عمر وشأنه لاعتقاده بأنه لا يشكل خطراً كبيراً على وضعه، ولكن حين بداله أن مطامع واليه السابق على العراق قد وصلت إلى حد الخطر بما توافر له من القوة والمنعة، والنية في التوسع قام لمواجهة وبعث إليه بجيش من الشام بقيادة النضر بن سعيد الحرشي، أحد رجالات قيس المشهورين فاصطدم به، ودارت بين القوتين معارك هي إلى المناوشات الخفيفة أقرب لم تؤد إلى نتيجة حاسمة وظل الفريقان على هذه الحال حتى ظهرت مشكلة أكثر خطورة، تمثلت بالخوارج الذين برزوا مجدداً على مسرح الأحداث في العراق. وانهمك مروان الثاني في التصدي لهم. وترك أمر عبد الله بن عمر .

حركة سليمان بن هشام بن عبد الملك:

استهل سليمان حركته المضادة لمروان الثاني حين أرسله إبراهيم بن الوليد على رأس قوة عسكرية لوقف تقدمه عند عين الجر، إلا أنه خسر المعركة، ونقله مروان الثاني، بعد أن تسلم الحكم إلى حزان مع بعض وجوه بني أمية)، ولعله أراد أن يظهر لأهل الشام وحدة الصف الأموي، لكن العداوة كانت شديدة، ولم تنفع

هذه التظاهرة برأب الصدع بدليل أنه عندما نشبت الثورة في العراق ضد حكمه انتدب الناس إلى المسير معه، وكان سليمان ممن خرج، فلما وصل إلى الرقة طلب من الخليفة أن يقيم أياماً ليتقوى ثم يلحق به فأذن له ويبدو أنه نشق مع القوة الشامية التي رافقته، فدعاء الجند إلى خلع مروان ومبايعته بالخلافة على أن يتأسسهم لحربه بحجة أنه أَرْضَى عند أهل الشام من مروان، فقبل عرضهم وخرج بأخوته وولده ومواليه وسار مع رجاله فاستولى على قنسرين، وصادفت دعوته قبولاً في دمشق واجتمع تحت رايته جند غير وعسكر في قرية قرب دمشق، ونفذ غارات على مؤخرة جيش الخليفة، فتصدى له هذا الأخير قرب قنسرين وانتصر عليه، وفر سليمان بن هشام مع من تبقى من جنده إلى حمص ثم إلى تدمر ومنها إلى الكوفة حيث انضم إلى حركة الضحاك الخارجي ولا شك بأن عصيان سليمان بن هشام وانضمام فئات من أهل الشام إليه وقيام اضطرابات في بعض مدن الشام كلها مؤشرات واضحة على الحالة المتردية التي آلت إليها وحدة الأسرة الأموية، وإلى خطورة هذا الصراع الذي استمر بين أفرادها بشكل لا يبرره سوى المطامع الشخصية.

نهاية مروان الثاني.

الواقع أن انهماك مروان الثاني في إخماد الثورات والفتن شغله عن الاهتمام بما كان يجري في المشرق خاصة في خراسان التي كانت مركزاً للدعوة العباسية. وقد انتشرت في المنطقة انتشاراً واسعاً، واستقامت الأمور فيها لبني العباس، مما أدى إلى اقتناع الدعاة العباسيين بأن الوقت قد حان للجهر بها، وفعلاً حصل هؤلاء الدعاة على موافقة إبراهيم الإمام، الذي كان يعيش في الحميمة على الجهر بالدعوة والخروج على الأمويين. وقد تولى أبو مسلم الخراساني، الذي أضحى رئيساً للدعوة في خراسان، أخذ البيعة تحت شعار البيعة إلى الرضا من آل محمد

. أدرك نصر بن سيار عامل مروان على خراسان، ما يشكله أبو مسلم من خطر على الدولة الأموية، فبعث برسالة عاجلة إلى دمشق يشرح فيها حالة الفوضى التي سادت خراسان، وخطر أبي مسلم الذي كان يتزايد يوماً بعد يوم، ويطلب مدداً من الخليفة الواقع أن انهماك مروان الثاني في إخماد الثورات والفتن شغله عن الاهتمام بما كان يجري في المشرق خاصة في خراسان التي كانت مركزاً للدعوة العباسية. وقد انتشرت في المنطقة انتشاراً واسعاً، واستقامت الأمور فيها لبني العباس، مما أدى إلى اقتناع الدعاة العباسيين بأن الوقت قد حان للجهر بها. وفعلاً حصل هؤلاء الدعاة على موافقة إبراهيم الإمام الذي كان يعيش في الحميمة على الجهر بالدعوة والخروج على الأمويين. وقد تولى أبو مسلم الخراساني، الذي أضحى رئيساً للدعوة في خراسان، أخذ البيعة تحت شعار البيعة إلى الرضا من آل محمد ويبدو أن مروان كان عاجزاً، آنذاك، عن إجابة طلب واليه، ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يمني بالوعد ويؤوده

بالنصائح مما أتاح لأبي مسلم السيطرة التامة على خراسان، ولم يتمكن نصر من الصمود أمامه فتقهقر إلى نيسابور ومعه أنصاره من العرب الذين هربوا من خراسان ثم حدث أن انتقلت القيادة العباسية العليا في العراق إلى قحطبة بن شبيب الطائي وهو عربي، الذي سارع إلى الاصطدام بقوات نصر وتغلب عليها وأجبر نصراً على ترك نيسابور حيث قصد الري، وفيها وافته الإمامة التي بعثت بها الخلافة بعد أن أدركت خطورة الوضع، وضرورة مساندة صمود نصر فابتدأت بذلك جولة أخرى من الاصطدامات كان النصر فيها حليف القوات العباسية ومات نصر بن سيار بالري في شتاء عام (١٣١) هـ (٧٤٨ م) بعد وقعة أصفهان في جو الهزيمة القاتم.

ثم اتجه قحطبة نحو العراق ليصطدم بالقوات الأموية بقيادة ابن هبيرة، والي مروان على العراق، وتغلب عليها وهم بدخول الكوفة إلا أنه غرق وهو يغير نهر الأول الفرات ودخلت القوات العباسية المدينة بقيادة حميد بن قحطبة في شهر ربيع عام ١٣٢ هـ شهر تشرين الأول عام ٧٤٩م وسلم الأمر إلى أبي سلمة الخلال الذي اضحي وزير آل محمد .

وبويع في الكوفة لعبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس المعروف بأبي العباس، وقد كان أخوه إبراهيم الإمام قد عهد إليه بأمر الدعوة عندما قضى عليه مروان الثاني آنذاك بعد ما افتضح أمره؛ ليصبح أول خليفة عباسي.

وبعد أن تم له الأمر في العراق أرسل جيشاً، بقيادة عمه عبد الله بن علي، التقى بجيش مروان الثاني على نهر الزاب وهو أحد فروع نهر دجلة. وكانت الانتصارات التي حققتها الثورة، حتى ذلك التاريخ، قد أضعفت معنويات الجيش الأموي، فأحجمت بعض وحداته عن خوض المعركة ومنها الوحدات اليمينية، ربما بدافع العصبيّة من جهة ومن التأخير في دفع مرتبات الجند من جهة أخرى، وعصت هذه الوحدات أوامر مروان في تلك اللحظة الحرجة .

ودارت بين الجيشين الأموي والعباسي رحى معركة عنيفة في (شهر جمادى الآخرة عام ١٣٢ هـ شهر كانون الثاني عام ٧٥٠م استمرت أحد عشر يوماً انتهت بهزيمة مروان الذي انسحب بعد المعركة باتجاه الموصل لكن المدينة أغلقت أبوابها في وجهه مما دفعه إلى الانسحاب نحو حزان مقره السابق، إلا أن الجيش العباسي ظل يطارده فانسحب إلى حمص فدمشق فالأردن ثم فلسطين. وكانت المدن في البلاد تفتح أبوابها للجيش العباسي باستثناء مدينة دمشق التي دخلها العباسيون عنوة وعهد عبد الله بن علي إلى أخيه صالح بمطاردة مروان، بعد أن تجاوز الشام. ووصل مروان في غضون ذلك إلى مصر بعد أن تخلى عنه أنصاره وتوقف في قرية بوضير الصغيرة في منطقة الفيوم حيث داهمته في الليل قوة

عسكرية. وقاوم مروان حتى خر صريعاً، وانتهت بمقتله أيام دولة الخلافة الأموية، وكان ذلك في عام (١٣٢هـ/ ٧٥٠ م) .

وهكذا أسدل الستار على حياة أسرة حكمت دولة الإسلام ما يقرب من قرن من الزمن، حققت خلاله لأمتنا الإسلامية ما لا يمكن حصره من منجزات وعطاءات في مختلف ميادين الحياة، ويمكننا أن نعتبر أن العصر الأموي، هو العصر الذي تبلور فيه وهي عربي ظل متمكناً طالما احتفظ العرب بموقع السيادة في المجتمع

الفصل الثامن

أسباب سقوط دولة الخلافة الأموية

إن سقوط دولة الخلافة الأموية هو أمر طبيعي إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الدول كالأفراد والكائنات الحية تمر في أدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف ثم فناء، إنما كل دولة تُذكر بمآثرها وبما تتركه من آثار إيجابية. ومما لا شك فيه أن هذه الدولة الأموية تركت مآثر جلييلة نذكر لها منها : أنها زادت في مساحة الدولة الإسلامية فامتدت من أواسط آسيا شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وصبغت هذه الساحة الشاسعة من الأراضي بالصبغة العربية عن طريقين طريق تشجيع هجرة القبائل من الجزيرة العربية إلى البلاد المفتوحة حيث استقرت واختلطت بالسكان المحليين، فنتج عن هذا الانتشار العربي نشر اللغة العربية في أنحاء البلاد المفتوحة باعتبارها لغة القرآن وطريق تعريب الدواوين وضرب النقود العربية الإسلامية. كما اهتمت بتدوين الحديث النبوي الشريف الذي بدأ في عهد عمر بن عبد العزيز، الأمر الذي ساعد على انتشار اللغة العربية بين المسلمين على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم"، هذا وقد سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصليها، عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟ قال: إنا شغلنا بلداتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا. فظلمنا رعيننا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ووثقنا بوزرائنا، فأثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جنودنا، فزال طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتضافروا معهم على حربنا . وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلّة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا) .

الواضح أن التماسك كان لا يزال بادياً على دولة الخلافة الأموية حتى عهد هشام بن عبد الملك، وأوضاع الأمويون، بعد وفاته في عام (١٢٥هـ/ ٧٤٣ م)، كل شيء بعد ما فقدوا تماسكهم. وكان منظر الوليد الثاني العايب والحروب الأهلية التي حدثت بعد مقتله، قد حطمت كل ما كان لهم من هيبة عند الناس،

وكان مروان الثاني مقاتلاً شجاعاً، وقائداً ممتازاً لكن فرصة الإصلاح قد ذهبت، ولم يستطع لم شعث الأمويين، فذهبوا وتفرقت ریحهم.

ويبدو أن لهذا الانحلال الذي سرى في جسم الدولة أسباباً خاصة ترجع إلى الظروف التي قامت في ظلها، وإلى الآثار الدينية والمعنوية التي أثارها السياسة الأموية، بالإضافة إلى أسباب عامة تكمن في التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي برزت نتيجة التوسع في الفتوحات والاحتكاكات الشعوب المجاورة عسكرياً وحضارياً . مع والواقع أن سقوط دولة الخلافة الأموية، لا يمكن أن يُعزى إلى حادث فرد، ولا بد أن تكون هناك جملة أسباب أدت إلى هذه النهاية المحتومة، كان من بينها.

أولاً : صراعات الأسرة الأموية

ترجع طموحات الأمويين وسعيهم للوصول إلى السلطة إلى عهد عثمان بن عفان، وإن معاوية بن أبي سفيان، وهو من الفرع السفيناني في الأسرة الأموية، استطاع بجهوده الشخصية، أن يصل إلى الحكم في عام (٤١ هـ) بدعم مادي ومعنوي لم يأتيه من أسرته، وإنما أتاه من جبهة شامية قبلية متماسكة وقفت وراءه، لذلك لم يكن لهذه الأسرة دور بارز في إدارة الدولة في عهده إن من الناحية الإدارية، أو من الناحية العسكرية، نلاحظ ذلك من خلال استعراض أسماء ولاية وقادة معاوية الذين استعان إلا أن معاوية لم يجاف أسرته جفاء تاماً، بل استعان بأفراد منها واضعاً نصب عينيه هدفين :

الأول: الاستعانة بالأكفاء منهم . الثاني: الحيلولة دون ازدياد سلطانهم ونفوذهم بشكل يهدد مخططاته السياسية، ولعل أبرز مجال اعتمد فيه على بني أمية كان ولاية العهد. فقد اعتمد على مروان بن الحكم في أن يكون رسوله إلى الحجازيين لأخذ البيعة لابنه يزيد. وعمد معاوية، أحياناً، إلى بث الفرقة بين أفراد الأسرة الأموية، والإيقاع بين رجالها البارزين الذين قد يشكلون خطراً على سياسته؛ بهدف الحد من طموحاتهم.

وطبيعي أن تتعكس هذه السياسة الهادفة إلى حصر الخلافة بأفراد بيته، على أفراد الأسرة، خاصة حين يدب الضعف . أوصل الفرع السفيناني، فيأتي الفرع المرواني ليستخلص الأمر لنفسه. لكن معاوية استطاع تحقيق وحدة الصف الأموي بما كان يمتلك من صفات ومؤهلات قيادية فذة، ويبدو أن هذه الوحدة أخذت بالتداعي حين أعلن عن نيته البيعة لابنه يزيد بولاية العهد.

كان مروان بن الحكم الشخصية البارزة، داخل الأسرة الأموية، الذي تطلع نحو الخلافة بما كان يمتلك من كفاءات قيادية وإدارية وقد ساعده تصرف معاوية وممارساته، حين أخذ بتهيئة الأمور لصالحه الشخصي ثم لولده من بعده، لكنه لم يستطع أن يسفر عن معارضته لهذه السياسة أثناء حياة معاوية، وقنع بمجاراته

حين أدرك عسكريين من خارج أسرته أيضاً أمثال بسر بن أرطاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، مالك بن هبيرة السكوني أسعد بن أبي صرح معاوية بن خديج وغيرهم. استعان معاوية بأخيه عنبسة وبمروان بن الحكم وسعيد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم. لقد أوقع معاوية بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص راجع حول هذه الأحداث أن الأحداث قد تجاوزته، وكان مستعداً للتحرك بعد وفاته، إلا أن الظروف الداخلية الخطيرة التي كانت تمر بها الخلافة الأموية والتي تطلبت تضافر جهود الأمويين المواجهتها ؛ منعتة من الجهر بمعارضته. وقد تجلى الخلاف ظاهراً بين آل أبي العاص وعلى رأسهم مروان بن الحكم ، وآل العاص بزعامة سعيد بن العاص من جهة، وآل أبي سفيان من جهة أخرى . ويبدو أن هذه الخلافات ظلت محصورة فلم تؤثر على أوضاع الدولة الفتية الناشئة، وقد امتصها معاوية كما حالت الأحداث الداخلية دون تفاقمها في عهد ابنه يزيد.

واتسم موقف مروان بن الحكم من خلافة معاوية الثاني بالسلبية، إذ لم يكن راضياً عن تسلمه الحكم، إلا أن مدة خلافته القصيرة لم تتح له العمل على إبداء سلبيته ، على الرغم من أن بعض الروايات ترجح أن معاوية الثاني مات مسموماً بتدبير من الفئة المعارضة لآل حرب في الأسرة الأموية.

وحانت الفرص لمروان بن الحكم بأن يتسلم سلطه نتيجة مقررات. مؤتمر الجابية .يبدو ان الأسرة الأموية ارادت أن تضع حدا لما سنه معاوية من حصر السلطة في بيت واحد فقرر المجتمعون في الجابية ان يخلف مروان كل من خالد بن يزيد بن معاوية ثم عمرو بن سعيد بن العاص لكن مروان اراد يقتضي بمعاوية فحصر السلطة في ابنائه. وانجح في إزاحه المرشحين اخذ البيعة لا بنيه عبد الملك ثم عبد العزيز يبدو انه ذهب ضحية هذا التصرف.

كان ذلك أول خلاف جدي ينشأ بين أفراد الأسرة الأموية بعد استلام الفرع المرواني للخلافة، وقد تفاقم بعد ذلك وظهرت آثاره للعلن ويعتبر خلاف عبد الملك بن مروان مع عمرو بن سعيد، الذي امتنع عن بيعه الأول، من أشد ما وقع من خلاف داخل الأسرة الأموية في هذه الفترة، وقد أدى إلى إراقة دم عمر و على يد عبدالمك بعد سلسلة من الأحداث ، وقد قضى مقتله على آمال خالد بن يزيد في الخلافة، وثبت، بشكل قاطع حكم الفرع المرواني ، إلا أن ذلك قد فتح الباب مشرعاً لنزاعات كثيرة سوف يشهدها العصر الأموي .ويبدو أن هذه الخلافات لم تؤثر على مسيرة الدولة حتى هذه الفترة، بفعل أنها كانت لا تزال في طور الفتوة، وتمكنت من امتصاصها وكان لشخصية عبد الملك بن مروان أثر كبير في ذلك، حيث نجح في إعادة توحيد العالم الإسلامي تحت رايته، لكن الأحقاد ظلت كامنة في النفوس تتحين الفرصة للانتقام. وقد أيد يحيى بن سعيد، أخوعمر، حركة ابن الزبير، وألمه مقتل مصعب. ونهج عبد الملك بن مروان نهج والده، فحصر الخلافة في أولاده بعد وفاة أخيه عبد العزيز، فبايع لابنيه الوليد وسليمان بولاية العهد.

وحدد الوليد سياسته تجاه الأسرة الأموية ضمن اتجاهين : الأول: الاستفادة من القدرات الأموية بما لا يتعارض مع مصالحه الشخصية ومصالح الفئة التي يمثلها . الثاني : عدم السماح بقيام تكتل معارض داخل الأسرة الأموية . مثل الاتجاه الأول توليته عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة، كما عين أخاه عبد الله والياً على مصر وولى أخاه مسلمة قيادة الجيوش على الجبهة البيزنطية . وتجلّى الاتجاه الثاني حين قام نزاع بينه وبين أخيه سليمان بسبب موقف الأخير من آل المهلب، فقد رفض الخليفة إجارة أخيه ليزيد بن المهلب منعاً لقيام مراكز قوكون ولاؤها لغير الخليفة، ثم حاول خلع أخيه سليمان وتولية ابنه عبد العزيز، لكن الموت عاجله.

ولما تولى سليمان السلطة عزل جميع ولاة الوليد وقادته وعين رجم رجالاً يلق بهم ويضمن ولاءهم. وشهد عهده صراع القيادة السياسية مع القيادات العسكرية، كما تعرضت الدولة لنكسة خطيرة في الأندلس تمثلت بمقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير في عام ٩٧ هـ / ٧١٦م) مما سيكون له آثار سلبية مهدت لانفصال الأندلس عن جسم الدولة.

كان سليمان قد ولى ابن عمه عمر بن عبد العزيز ولياً للعهد من بعده، على أن يخلفه يزيد بن عبد الملك. وقد عارض بعض أفراد الأسرة الأموية هذا التوجه خاصة هشام بن عبد الملك، كما عارض العباس بن الوليد سياسة عمر الانفتاحية، وحصل جفاء بين الرجلين تطور إلى تشكيل جبهة معارضة تنامت بمرور الوقت، وقرر المعارضون أخيراً التخلص من الخليفة .

وبرز في عهد هشام بن عبد الملك تيار معارض تزعمه ابن أخيه وولي عهده الوليد بن يزيد بن عبد الملك ودار صراع بين الرجلين، فقرر الأول خلع الثاني من ولاية العهد وتولية ابنه مسلمة، إلا أن الوليد أبى أن يخلع نفسه، وفرّ من وجه عمه الذي ضايقه، واستمر خارج دمشق حتى وفاة هشام .

١- وبوفاة هشام بن عبد الملك وتسلم الوليد بن يزيد الوليد الثاني الحكم؛ دخلت الأسرة الأموية في صراع جديد السم بالحدة أحياناً، وشكل منطلقاً لسلسلة طويلة من الأحداث المتسارعة ، أنت إلى سقوط دولة الخلافة الأموية.

كانت علاقة الوليد الثاني بأبناء عمه هشام عدائية؛ فقد نعتوه بنعوت قاسية، وكفروه ورموه بالزندقة ونظموا حملة عدائية ضده وراحوا يجسمون أخطاءه وهفواته، ويقولون عليه، حتى حملوا الناس على الفتك به. وهكذا شهدت الساحة الأموية في عهده تدهوراً خطيراً في العلاقات بين أفراد الأسرة الأموية، وقد حملت معها بذور الشر، كما شهدت تدهوراً خطيراً في الأوضاع الداخلية، التي تجلت في تنامي الصراعات

القبلية التي كانت السند الأساسي لبني ؟ أمية. بالإضافة إلى بروز صراع الولاة والحكام على السلطة في الأقاليم . ولا شك بأن الانقلاب الداخلي الذي حصل على حكم الوليد الثاني، إنما هو تعبير عن تناقضات كثيرة أصابت الجسم الأموي، كانت موجودة قبل عهده واستمرت بعد تسلمه الحكم. ويُعتبر مقتل هذا الخليفة نذيراً بانهيار الأسرة الأموية، وقد تم على أيدي رجال من بني أمية، وجماعة من قضاة واليمنية من أهل دمشق خاصة . وهكذا، فبعد أن كان الحكم الأموي يقوم على قاعدة قوية متماسكة أضحت بعد مقتل الوليد الثاني، يستند على جماعات متفرقة غير متجانسة، ليس لها هدف يوحدتها أو مصلحة تجمعها .

وزدادت أوضاع الأسرة الأموية تدهوراً على عهد يزيد الثالث، واشتدت صراعات الأمويين الدامية على السلطة، فكثر المتصارعون، وعمت الفتن الأطراف، وظهر على مسرح الأحداث مغامرون يريدون أن يحققوا لأنفسهم مكاسب دنيوية في ظل ظروف قاسية بعدما عجزوا عن تحقيقه حين كانت الدولة قوية. وقد شعر كل من مروان بن محمد حاكم الجزيرة وأرمينيا، والعباس بن الوليد بهذه الوطأة وحاولوا ردع يزيد .

وكانت وفاة يزيد الثالث وبيعة أخيه إبراهيم التي لم تتم بالإجماع، من المشاكل الخطيرة التي حلت ببني أمية في بلاد الشام في الوقت الذي بدا الوهن يظهر جلياً على جسم الدولة وقد أدت هذه البيعة المزعزعة إلى مضاعفات كثيرة وخطيرة أهمها : ازدياد التفسخ في البناء الأموي، وتنامي مطامع الأحزاب والأشخاص من التواقين لانتزاع السلطة من الأمويين، وبرز مروان بن محمد، الذي أدرك مخاطر التنزع على السلطة، ليؤكد حضوره، بعد وفاة يزيد الثالث، كشخصية أموية لها دور مميز في الحياة السياسية. ونتيجة لتفاقم الأوضاع الداخلية، واشتداد الأخطار الخارجية في الولايات، قرر مروان حسم الأمور لصالحه، لكنه واجه عدة حركات معادية في بلاد الشام بشكل خاص تزعمها أفراد من الأسرة الأموية، أمثال سليمان بن هشام بن عبد الملك. وقد انهمك مروان في التصدي لها حتى أنهكت قواه، ثم وجد نفسه عاجزاً عن التصدي لقوة العباسيين المتنامية، الذين زحفوا من الشرق وقضوا على دولة الخلافة الأموية. والحقيقة أن الأسرة الأموية لم تمتلك من الغطاء العقائدي ما يقيها خطر التمزق بالرغم من أن عمر بن عبد العزيز قد سعى لتأمين هذا الغطاء، لكن بدون نجاح له صفة الاستمرارية.

ثانياً : توليه العهد اثنين

كانت ولاية العهد من الأسباب التي أدت إلى انشقاق البيت الأموي. فقد درج أمية على تولية العهد اثنين يلي أحدهما الآخر. ويبدو أنهم سلكوا هذا المسلك تفادياً لنشوب الحروب الأهلية بعد وفاة الخليفة. وقد بذر هذا النهج بذور الشقاق، وأدى إلى المنافسة بين أفراد الأسرة الأموية، وأوردتهم الحقد والبغضاء. إذ لم

يكد يتم الأمر لأولهما حتى يعمل على خلع الآخر، وإخلال أحد أبنائه مكانه، مما أو غر صدور بعضهم على بعض .

وأول من سن هذه السنة مروان بن الحكم؛ فإنه ولي عهده ابنه عبد الملك ثم عبد العزيز ضارباً عرض الحائط مقررات مؤتمر الجابية التي قضت بتولية خالد بن يزيد العهد، ثم عمرو بن سعيد بن العاص من بعده، وكان من نتيجة ذلك أن خرج عمرو بن سعيد على عبد الملك .

ونهج عبد الملك نهج والده، إنه فكر في خلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد ثم سليمان من بعده، لكن وفاة عبد العزيز حالت دون ما كان قد عزم عليه، ولم يمنعه ذلك من المضي في نهج السلوك نفسه الذي زرع البغض والعداوة بين الأخوين وتعدتهما إلى القادة والعمال.

ولما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة عمل على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها في ابنه عبد العزيز منتهجاً النهج نفسه الذي سلكه والده من قبل، وكتب بذلك إلى الأمصار، فأجابته الحجاج بن يوسف الثقفي، والي العراق، وقتيبة بن مسلم والي خراسان ومحمد بن القاسم والي السند لكن القضاء عاجل عبد العزيز.

وهكذا تطورت الأحداث السياسية، نتيجة المنافسة بين أفراد الأسرة الأموية، تطوراً خطيراً حتى باتت تشكل خطراً جدياً على الدولة. لم يعتبر سليمان بما طرأ على الدولة الأموية من أحداث خطيرة بسبب تولية العهد النين، فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك من بعده، ولم يكن الرجلان على وفاق، وحصل بينهما جفاء، لكن عمراً لم يحاول خلع يزيد متجنباً سلوك هذا الطريق الخطر، مدركاً في الوقت نفسه ما أصاب بني أمية نتيجة ذلك .

ونهج يزيد بن عبد الملك السلوك نفسه، دون أن يعتبر بما وصلت إليه الدولة من التدهور، فولى عهده أخاه هشاماً، ثم ابنه الوليد فأراد هشام أن يخلع الوليد بعد توليه الخلافة، ووافق معظم القادة والعمال وتباعد الرجلان وحصل بينهما جفاء، لكن هشاماً توفي قبل أن ينفذ رغبته فجاء الوليد الثاني تراوده فكرة الانتقام من أولئك الذين وافقوا هشاماً على خلعه، ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته . كانت هذه السياسة نذير الخراب الذي حل ببني أمية، فانشق البيت الأموي تجزأت القوى التي كان يستند عليها، مما أفسح المجال لخصومهم الذين انطلقوا من المشرق مندفعين بقوة وقضوا على دولتهم

ثالثاً: الصراعات القبلية

ارتكز الحكم الأموي، منذ نشأته على العصبية القبلية وغلب عليه الطابع القومي الذي لازمه حتى زواله. ذلك أن ظروف الصراع القيسي - اليميني، الذي حمل العرب بذوره مع انطلاقهم من الجزيرة العربية

انعكس على شخصية الدولة، وألبسها تلك الملامح القومية، بالإضافة إلى ظروف الفتوحات وما نتج عنها من اختلاط بين السكان وتميز العنصر العربي. ويبدو أن الخلفاء الأمويين، أنفسهم، كانوا يستقرون هذه الخلافات، ويثيرونها أحياناً، وأحياناً أخرى كانت تفرض عليهم نتيجة تطور الأوضاع السياسية .

لقد كان معاوية، وهو يعد خطته للسيطرة على الخلافة، يجتهد في استخدام مختلف الأسلحة العسكرية والنفسية والإعلامية والسياسية، من أجل الفوز بمعركة ولهذا فرضت عليه هذه المنهجية أن يتمسك بالعصبية القبلية، التي أخدمت بعد حروب الرقة .

ومن الواضح أن إحياء هذه الروح القبلية، كان في الوقت نفسه يعثراً للنظام الجاهلي القديم بما فيه من تناحر وتخاصم . ولقد وظف معاوية في سياسته الداخلية لعبة التحالف القبلي المتوازنة ببراعة من خلال مصاهرته لبني كلب أقوى القبائل اليمنية في بلاد الشام .

وانصرف الأمويون، بعد غياب معاوية الثاني إلى إنقاذ خلافتهم المهددة بالسقوط وكانوا أسيري القوى القبلية التي امتلكت زمام الأمور مع انهيار الحكم المركزي. وكان معاوية الأول الذي أوجد تلك المعادلة القبلية التي حققت له التوازن خلال عهده الطويل، يعيد في الوقت نفسه النزعة العصبية القديمة بصراعاتها التقليدية التي شاعت في العصر الجاهلي.

فالحزب اليمني، وعلى رأسه قبيلة كلب بزعامه حسان بن بحدل ذات النفوذ القوي والواسع في الدولة، كان متشدداً في الحفاظ على مكتسباته السياسية والاقتصادية، وفي المقابل كان الحزب القيسي، بزعامه الضحاك بن قيس، قد وصل إلى درجة كادت تنافس الحزب اليمني وكان يطمح في الوصول إلى المركز القيادي لذلك اختار الجانب الآخر المعادي والمنافس للأمويين وحلفائهم فتحالف مع ابن الزبير الذي كانت حركته في تصاعد مستمر . وفي المؤتمر الذي عقد في الجابية في عام ٦٤ هـ / ٦٨٤م انتخب مروان بن الحكم خليفة بالإجماع، كما عُيِّن خالد بن يزيد الذي رشحه الكلبيون ولياً للعهد وبذلك نجح التحالف الأموي اليمني في توحيد صفوفه لمواجهة الخطر القيسي .

وهكذا توضحت الصورة السياسية فإذا هي صراع قبلي . وتعتبر الحرب القاسية التي دارت في مرج راهط عودة إلى حروب العرب في الجاهلية حيث العصبية كانت الدافع الأبرز للقتال. وجاءت النتائج لمصلحة التحالف الأموي اليمني بعد انتصاره الواضح على الحزب القيسي حيث قضى على عدد من زعمائه من بينهم الضحاك . والواقع أن هزيمة مرج راهط لم تكن مجرد خسارة عسكرية للحزب القيسي بل كانت نقطة تحول في حياته السياسية، وظلت في ضميره مفعمة بالحقد والكراهية، كما خسر هذا الحزب بعض امتيازاته التي تمتع بها مناصروه أثناء زعامه الضحاك. وكانت معركة الخازر التي حدثت في عام ٦٧هـ/

٦٨٦ م)، بين إبراهيم بن الأشتر وبين قوى أموية بقيادة عبيد الله بن زياد قد اصطبغت بصبغة الصراع الشيعي الأموي إلا أنه تخللها مواقف ذات صراع قيسي يمني، وذلك حين تراجع عمير بن الحباب السلمي وهو من قيس عيلان وكان على ميسرة جيش الشام، ونكس لواءه ونادى بالثارات المرجح، وانتهت المعركة بانتصار واضح لقوات ابن الأشتر، وقتل عبيد الله بن زياد في المعركة مع عدد كثير من جند الشام .

وبدلاً من أن يعمل خلفاء بني أمية على حسم هذا النزاع ووضع حد له، إذا بهم يناحزون إلى فريق دون آخر مما ساعد على اتساع الهوة بين العصبيتين، وكان من نتيجة ذلك أن عانت الدولة كثيراً من هذا النزاع، وفقدت الكثير من طاقاتها، واستغل الدعاة العباسيون هذه الثغرة لينفذوا منها إلى قلب الدولة الأموية، للعمل على القضاء عليها.

وتعد خلافة عمر بن عبد العزيز فترة انتقال بين حالة القوة والضعف الذي اعترى التحالف الأموي اليمني، فقد كان هذا الخليفة رجلاً صالحاً قضى فترة خلافته في إصلاح ما أفسده من سبقه من الخلفاء، فلم يناحز إلى جانب أحد، بل على العكس حاول التوفيق بين العصبيتين، فلم يول والياً إلا لكفاءته ومقدرته دون الأخذ بعين الاعتبار انتماءه القبلي، فساد عهده الهدوء.

فلما توفي عمر خلفه يزيد الثاني، الذي زج نفسه في غمرة الصراع القيسي اليمني، فأخذ جانب المضرية، فولى أخاه مسلمة بلاد المشرق، ثم ولاها لعمر بن هبيرة وهو قيسي وقد اصطبغت الدولة كلها في عهده بالصبغة القيسية، وأصبح العنصر اليمني ضعيفاً، خاصة بعد قضائه على أسرة المهلب بن أبي صفرة التي أخلصت في خدمة الأمويين وهي من أزد اليمن .

وكان الأمراء على شاكلة الخلفاء، يساعدون على إنماء هذه الروح العصبية، فإذا ولي يمني رفع رؤوس أهل اليمن واستعملهم عمالاً، فإذا خلفه مضري عزل اليمنيين وانتقم من سلفه وعماله، ورفع رؤوس القيسيين، ثم أخذ الخلفاء من بعده يعملون على توسيع شقة الخلاف بين القبيلتين الكبيرتين اللتين تستند عليهما قوة الأمويين وذلك وفقاً لاعتبارات سياسية فانضموا إلى القيسية حيناً وإلى اليمنية أحياناً.

ونلاحظ ازدياد حدة الصراع القبلي في هذه الفترة في خراسان بشكل خاص، بفعل سياسة أميرها مسلم بن زياد، الذي فرق بين قيس ويمن، وكانت النتيجة أن اقتتل الفريقان في هراة، كان هشام بن عبد الملك متقلباً في سياسته القبلية، وفقاً للظروف السياسية التي عاشها، وحاول في إحدى مراحل الصراع أن يعيد التوازن بين العصبيتين. لقد انحاز إلى جانب اليمنية في بادئ الأمر، بعد ازدياد قوة القيسيين حيث خشي من هيمنتهم على الدولة، وعمل على التخلص منهم، فعزل العمال المصريين، وولى مكانهم بعض اليمنيين. فقد ولي خالد بن عبد الله القسري، العراق، كما ولي أخاه أسداً على خراسان وبذلك أخذ الفريق

اليمني يستعيد قواه حيث تعصب الواليان لليمنية، وانتقما من القيسيين، لكن سرعان ما انقلب هذا الخليفة على اليمنيين وانحاز إلى جانب القيسيين وولى العمال منهم .

ولزم الوليد الثاني جانب القيسيين لأن والدته كانت منهم، فأقصى اليمنيين عن دوائر الدولة ونكل بهم، فقد قتل خالد بن عبد الله القسري في عام ١٢٦هـ / ٧٤٤ م) في عهد الخليفة الوليد الثاني لاتهامه بممالة العلويين، إلا أن الحرب على اليمنيين والتخلص منهم كانت الدافع الأبرز اعتبر اليمنيون مقتل خالد إهانة لهم وحملوا الخليفة مسؤولية هذا الحادث الذي أدى إلى توحيد القبائل اليمنية، لأول مرة، في العراق والشام، وقد اتخذت موقفاً معادياً للخليفة، وكان أشد القبائل اليمنية نقمة، بنو كلب في بلاد الشام فأخذوا يدبرون المكائد للتخلص منه، وانتهزوا فرصة سخط الناس عليه، وأشعلوا نار الثورة ضده، وقتلوه في عام ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م) وبايعوا يزيد الثالث.

لم يضع مقتل الوليد الثاني حداً للنزاع على السلطة بين أفراد البيت الأموي، بل ساعد على تفاقم الوضع، وظهر أثر ذلك في استمرار الانقسام بين الحزبين الكبيرين . فقد انضم يزيد الثالث إلى اليمنية، الذين أوصلوه إلى الحكم، ولزم جانبهم، وولى العمال منهم، فاستغل هؤلاء ذلك وأخذوا ينكرون بالقيسيين فتار هؤلاء في حمص وفلسطين والأردن، وانضم إليهم عدد من رجالات بني أمية، إلا أن يزيد الثالث استطاع أن يتغلب على خصومه بمساعدة اليمنيين . وأخيراً، انضمت القيسية إلى جانب مروان بن محمد المتطلع إلى منصب الخلافة. واستفحلت النزاعات العصبية في عهد خلافته، وشملت أنحاء الدولة حتى تصدع البيت الأموي، وأشرف الأمويون على الزوال. وقضى مروان الثاني جانباً من خلافته في إخضاع بعض أفراد الأسرة الأموية الذين خرجوا عليه بمساعدة اليمنيين أمثال سليمان بن هشام بن عبد الملك. وهكذا شهدت بلاد الشام والعراق وخراسان بشكل خاص حركات سياسية قائمة على العنصرية. وأضحت مسرحاً للفتن والاضطرابات، وشغل مروان الثاني جميع . بإخمادها، واستنفدت ،قواء فلم يلتفت إلى ما كان يجري في خراسان من بث الدعوة العباسية، التي اشتد أوارها وعظم خطرهما، ولم يلبث أن فاجأته الرايات السوداء من خراسان طارده حتى قضت عليه وعلى دولته .

رابعاً: النزعة العربية عند الأمويين

أ- الاتجاه السياسي

سادت النزعة العربية، بشكل بارز في أوساط الأمويين الذين مالوا للعرب، واستعلوا على الموالي. وظهر أثر ذلك في ثلاثة اتجاهات هي: الاتجاه السياسي، والاتجاه الاقتصادي والاتجاه الاجتماعي

ففيما يتعلق بالاتجاه السياسي، نلاحظ أنه دخل في الدين الإسلامي الكثير من الأعاجم لأسباب دينية أو اجتماعية أو مادية، إلا أنهم لم يحصلوا في الواقع على ما منحهم إياه الإسلام من مساواة سياسية تامة مع العرب فاستبعدوا، بشكل عام، من تولي الوظائف الكبرى في الدولة. وحُرموا من العطاء الذي يستحقونه نظير التحاقهم بالجيش، وفرضت عليهم الجزية رغم إسلامهم .

والثابت أن مصدر هذه التفرقة السياسية، هو الاتجاه الأموي نحو تمييز العنصر العربي، وقد أيقظت هذه المعاملة الشاذة روح التذمر بينهم.

والواضح أنه ليس هناك ما يدين هذه النزعة العربية لدى الأمويين وهم في الأصل فرع من قريش القبيلة القيسية الشهيرة، لكنهم لم يتأقلموا مع المتغيرات الجديدة التي طرأت على الوضع الإسلامي بعد الفتوحات ودخول عدد كبير من الشعوب غير العربية في الإسلام، فاحتفظوا بطابعهم المحلي والقبلي، ولم يستوعبوا ما أحدثته العقيدة الإسلامية من تغييرات وما أفرزته الفتوحات من انقلاب جذري في تاريخ المنطقة الإسلامية.

لقد رافق حياة الدولة الأموية بروز حركة الموالى التي نغمت على الطبقة العربية الحاكمة، وقد نتج عن ذلك ظهور صراع جديد يحمل في طياته خلفية قومية. وشكل هؤلاء إحدى القوى، السياسية الضاغطة التي ساهمت في سقوط دولة الخلافة الأموية، بفعل أنهم ظلوا الفئة التي تعطي أكثر بكثير مما تأخذ، وتتهض بعبء نشط في الدولة والمجتمع يؤهلها لقطف ثمرات الانتفاع على قدم المساواة مع العرب.

إذ ما كاد العصر الأموي يبدأ، حتى كانت الحركة الإسلامية في المشرق، خاصة في إيران، قد قطعت شوطاً متقدماً نحو البروز . ففي مدينة الكوفة، قام الموالى بأول حركة إسلامية في عام (٦٤٣ هـ / ٦٦٣ م) واضطر معاوية أن يواجه هذه الحركة، فعمل على تهجير طبقات منهم وأقامهم في بلاد الشام.

وزدادت حركة الموالى وضوحاً، اعتباراً من عهد يزيد ؛ ذلك أن مسلمي البلاد المفتوحة قد كثر عددهم في الوقت الذي رأوا فيه العرب، خاصة الأشراف، تتضاعف امتيازاتهم، وقد بدأوا يشكلون قوة ذات شأن في الحياة الإسلامية .

واتخذوا مواقف مميزة من الحركات المناهضة للحكم الأموي، فساندوا حركة ابن الزبير، على أمل أن يحصلوا على بعض الحقوق التي حرّموا منها في ظل الحكم الأموي. وبرزت قوتهم الواضحة في حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، وشكل هذا التأييد بداية التحالف بين الشيعة والفرس.

كانت هذه المواقف التعبير الأول عن رغباتهم في الحصول على حقهم الشرعي في المساواة، بالرغم من أنها لم تحقق لهم كامل أهدافهم.

وتبدلت السياسة الأموية تجاه الموالي في خلافة عمر بن عبد العزيز، ويمكن وصفها بأنها سياسة التوفيق بين التيار الإسلامي وبين المصالح الأموية، وقد نجحت في تسكين الفتن والاضطرابات، ثم تغيرت هذه السياسة بعد وفاته، فعاد الأمويون يفرقون في المعاملة بين العرب والموالي.

ويبدو أن هذا التيار السياسي الذي شكله الموالي لم يتبلور إلا في إطار الدعوة العباسية التي حركت ما يتطلع إليه هؤلاء من مساواة مع العرب، والعباسيون من جهتهم، راهنوا على الفرس شعباً وعلى إيران أرضاً حيث كانت خراسان المسرح الأول للمجابهة مع الأمويين.

ب - الاتجاه الاقتصادي

أما فيما يتعلق بالاتجاه الاقتصادي، فقد طبق الأمويون سياسة اقتصادية معينة عمادها حرمان الموالي من الامتيازات الاقتصادية، وقد حققت لهم بعض المكاسب الآتية إلا أنها أدت في النهاية، إلى قيام الاضطرابات التي كانت سبباً من أسباب زوالهم.

وساد التذمر الاقتصادي بين الموالي في كل مكان، وأخذوا ينضمون إلى كل خارج على الدولة. وكان موالي خراسان أكثر الناس تذمراً، خاصة وأنهم أسلموا قبل غيرهم في البلاد الأخرى، وشاركوا العرب في جهادهم ضد الأتراك في بلاد ما وراء النهر وضد الهنود في إقليم السند وعلى الرغم من كل هذه الخدمات فإن الدولة حرمتهم من الامتيازات الاقتصادية، وظهر أثر ذلك في عصر عبد الملك بن مروان وفي عهد الحجاج بشكل خاص، إلا أنها خصصتهم بمرتبات شهرية. فقد فرض معاوية لهم خمسة عشر درهماً، زادها عبد الملك إلى عشرين، وأضحت في عهد سليمان خمسة وعشرين ثم أصبحت ثلاثين في عهد هشام، مما يدل على استمرار تحسن أوضاعهم.

وبدا للحجاج أن الحركة الإسلامية النامية في البلاد المفتوحة أخذت تهدد الاقتصاد الأموي تهديداً خطيراً بفعل تناقص مقدار الجزية تدريجياً حتى اختفت باعتبارها مورداً من موارد بيت المال مما دفعه إلى إبقائها على من أسلم .

كما أخذت حركة الدخول في الإسلام بشكل واسع تهدد موارد بيت المال. الأخرى من ملكية الأرض وضريبة الخراج، باعتبار الأرض الخراجية، التي كان أهل الذمة يقومون بزراعتها، سيملكها المسلمون، وستتحول إلى أرض عشرية، ومعنى هذا أيضاً أن مقدار الخراج سيقبل كما قل مقدار الجزية .

وأخذت الدولة تتدارك مورد الخراج بالإبقاء على ما كان عليه مثلما أبقت على الجزية مما ولد سخطاً شديداً من جانب الموالي .

ثم أخذت الحركة الاقتصادية مظهراً آخر تمثل بالنزوح من القرى إلى المدن بهدف الحصول على العطاء أو الاستفادة من التطورات الاقتصادية الجديدة. وأنشأ المهاجرون أحياء جديدة حول المدن لخدمة الأرستقراطية العربية، خاصة في مجال الحرف والصناعات اليدوية، وقد اكتسب هؤلاء أرباحاً ضخمة مما أغرى آخرين على الهجرة فأضحت المدن العراقية والإيرانية مشبعة بطبقات كبيرة من العاطلين عن العمل الساخطين على أوضاعهم مما دفعهم إلى الارتقاء في أحضان الشيعة والعباسيين. ووجدت الدولة الأموية نفسها مضطرة إلى مقاومة تيار الهجرة هذا ، الذي كان يزداد باستمرار، وكان موضوع الهجرة هذه من أبرز المشاكل الاجتماعية التي عمل الأمويون على حلها .

ونتيجة لهذه السياسة الاقتصادية التي رفضها الموالي، وعبروا عن معارضتهم لها إما بشكل انتفاضات أو حركات سياسية ضد سوء إدارة بني أمية مما دفع الأمويين الذين شعروا بضغطها إلى التفكير في تعديل هذه السياسة. وقد تمثل هذا التعديل باتجاهين: الأول، اتجاه التراجع عن السياسة السابقة. الثاني، اتجاه الاعتراف بالأمر الواقع ومجاراة حركة الموالي المتزايدة .

تبلور الاتجاه الأول في عهد سليمان بن عبد الملك، حين أخذت الدولة تغير من سياسة الحجاج، في محاولة لاسترضاء طبقة الموالي. وترجمت هذه المحاولة بعزل ولاية الحجاج، وإطلاق آلاف الموالي من سجون البصرة والكوفة، وإشراكهم في الجيش الأموي، وضوعف العطاء كما خُففت الأساليب العنيفة في مقاومة تيار الهجرة التي ظهرت في عهد الحجاج ، فخفت نسبياً وطأة الظاهرة الاقتصادية.

حتى إذا جاء عهد عمر بن عبد العزيز بدأ يتبلور الاتجاه الثاني المتمثل بسياسة المسالمة والترضية. وأهم ما يلاحظ أن هذه السياسة لم تكن من وحي أخلاق عمر وتقواه فحسب إنما كانت مواجهة لتيار الموالي المتصاعد قبل أن تنوء الدولة تحت ثقله، بدليل أن هذا الخليفة اتبع سياسة اقتصادية كان أبرز مظاهرها إسقاط الجزية عن المسلمين عموماً ومضاعفتها على من بقي على دينه ، كما أباح الملكية للمسلمين دون تفرقة بين الطبقات .

وبالرغم من هذه السياسة الاقتصادية الجديدة فقد اتخذت طبقة الموالي شكلاً جديداً هو التحالف مع الدعوة الهاشمية سواء العلوية منها أو العباسية، واستطاع الدعاة العباسيون أن يوظفوا سخط الموالي والتطورات الاقتصادية لصالح الدعوة العباسية، وكانت هذه الظاهرة الاقتصادية من بين العوامل التي أدت إلى القضاء على الأمويين ونجاح الدعوة العباسية .

ج- الاتجاه الاجتماعي

أما من الناحية الاجتماعية، فقد كان الموالي يملكون بتطور اجتماعي معين في منطقة العراق وخراسان، ذلك أن الفتح الإسلامي لهذه البلاد، قضى على النظام الطبقي القديم، وحزر، في الوقت نفسه، طبقات العمال والصناع والمزارعين، الذين كانوا يعيشون في بؤس، وقد نتج عن تحررهم واعتناقهم الإسلام ظهور طبقة وسطى من بينهم سكنت المدن وأحرزت الثروات، ونهلت من الثقافة الإسلامية. وسرعان ما برز بعضهم في ميدان الفقه والأدب، وإذا بهم بعد ذلك يشعرون أنهم ليسوا أقل مستوى من العرب وأنهم أحق بالحصول على المساواة معهم. كانت هذه الطبقة الجديدة عماد الحركة العباسية وهي التي ستوجه الحياة العباسية في المستقبل.

ومن ناحية أخرى، فقد أخذت الهجرات العربية إلى البلاد المفتوحة تتسع بعد الفتح. وسكن العرب المدن، كما عاشوا في القرى وملكوا الضياع والمزارع فخضعوا النتيجة ذلك لتطورين هاميين : الأول : أنهم تركوا البداوة واستقروا وعملوا بالزراعة وتأثروا بالتقاليد الاجتماعية في البلاد التي هاجروا إليها والثاني: أنهم حملوا معهم بذور الانقسام التقليدي بين عرب الشمال وعرب الجنوب ووجد هذا النزاع واضحاً في خراسان حيث قامت الدعوة العباسية على أكتاف اليمانيين بمشاركة الموالي وتسببت في ضعف العنصر العربي. ولعل هذا الضعف هو الذي مهد لبروز القوة الفارسية. وهذا التطور كان من بين أسباب زوال الدولة الأموية ونجاح الدعوة العباسية.

خامساً: الخلافات المذهبية

كان الخلاف حول موضوع الخلافة أحد الأسباب التي أدت إلى إضعاف الدولة الأموية، ومن ثم زوالها والمعروف أنه وجدت في العصر الأموي أربع جماعات في الميدان السياسي :

الأولى :أنصار بني أمية وأغلبيتهم من السنة .

الثانية : أنصار العلويين من الشيعة الذين حصروا الخلافة في نسل علي بن أبي طالب، وقد حملوا لواء المعارضة طيلة العصر الأموي إلا أنهم منوا بالفشل، وقد أدى فشلهم هذا إلى تحويل حركتهم إلى عقيدة دينية عاطفية شبه باطنية، وأن يختفوا في

المناطق البعيدة عن مركز الخلافة حتى تسنح لهم فرصة الظهور .

الثالثة : جماعة العباسيين الذين دخلوا ميدان السياسة في أواخر العصر الأموي لينافسوا الأمويين والشيعة معاً، ويبدو أني هؤلاء كانوا أكثر براعة في دعوتهم وأساليبهم من الشيعة فأقاموا تنظيمات سرية وانتشر بسرعة في النصف الشرقي من دولة الخلافة الأموية، عن طريق خلاياه السرية .

الرابعة : جماعة الخوارج الذين لا يؤمنون بالوراثة كأساس لنظام الحكم ولا يرون حصر الخلافة في جنس معين أو بيت معين بل يعتقدون أن الخلافة للأمة يكون الاختيار فيها هو الأساس كما أعلنوا غضبهم واشتمئزازهم من شرور الحكام ومطامعهم. لهذا كانت هذه الجماعة معارضة للخط الأموي وقد اشترك أفرادها في الفتن التي قامت ضد الدولة الأموية كما انتشر عدد كبير منهم في المناطق البعيدة عن مركز الخلافة بدمشق.

وقد أدى هذا الخلاف إلى اصطدامات دامية شغلت جانباً كبيراً من نشاطات الأمويين وأنهكتهم، وكانت تعبيراً عن استياء أكثر من فئة في المجتمع الإسلامي من حكمهم، وغدت بعد ذلك، عنصراً هاماً من عناصر المعارضة، استغل اسمها ليكون الواجهة الدينية للشعارات التي طرحها دعاة بني العباس.

الخاتمة

يُعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان إيذاناً ببداية مرحلة سياسية جديدة من مراحل التاريخ الإسلامي، تقلد فيها الأمويون الحكم ومارسوا السياسة. وتحول نظام الحكم كما عرفه المسلمون ومارسوه في العهد الراشدي من نظام الشورى إلى النظام الملكي الوراثي، متخذاً طابعاً جديداً مغايراً، صاحبه كثير من مظاهر الترف التي حفلت بها قصور الأمويين.

وكان سبب هذا المنحى الجديد في المسار التنظيمي هو تغير مفاهيم العصر بفعل الفتوحات الإسلامية، واختلاط العرب بسكان البلاد المفتوحة، إلا أن دولة الخلافة الأموية بقيت إسلامية بشرعها وعرفها، واشتهر حكامها بأنهم خلفاء بحكم الإسلام، وهم في الوقت نفسه ملوك متوجون، واندثر في هذا العصر مبدأ الشورى كما عرف في العهد الراشدي .

لكن هذا التحول إلى النظام الوراثي، الذي أحدثه معاوية بن أبي سفيان، لم يتمش بشكل متوازن، مع الاندماج السياسي والاجتماعي، مما أدى إلى فقدان الانسجام بين جناحي الخلافة الديني والزمني، وبالتالي إلى إضعاف النظام.

نتيجة لهذه المتغيرات في البنية السياسية، فقد انقسم المسلمون تجاه الوضع السياسي الجديد، فكانوا بين مؤيد ومعارض، فمنهم من بايع عن قناعة، معترفاً بالتغيير الحاصل، راضياً بانتقال مركز الخلافة من بلاد الحجاز إلى بلاد الشام، وبالتالي من المدينة المنورة إلى دمشق، مع ما نتج عن ذلك من تغييرات حضارية وفكرية؛ وحجة هذه الفئة من المسلمين أن النظام الأموي أضحى القوة الشرعية بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، الذي أصبح خليفة المسلمين وإمامهم دون منازع، ومن ثم كانت مؤازرتهم له انطلاقاً من ضرورة السمع والطاعة لولي أمر المسلمين .

وكان معاوية رجل العصر المطلوب لملء الفراغ السياسي والقيادي بما له من خبرة وتجربة يؤهلانه لذلك المنصب الهام والخطير، وظل أهل الشام على ولائهم له .

أما المعارضون من أهل الأمصار فكانوا أهل الحجاز الذين لم يواكبوا تطور العصر، وقد ساءهم كثيراً انتقال مركز السلطة من بلادهم إلى بلاد الشام، وصمدوا أمام قوة معاوية، وظلوا على عدائهم للأمويين. وقد حمل عبد الله بن الزبير راية المعارضة في وقت مبكر، وشاركه العلويون في تبني هذا الموقف، وجاءت فترة كان فيها الحزب الزبيري من أقوى الأحزاب المعارضة للنظام الأموي .

ووقف أهل العراق في صف المعارضة، وإن اعتري موقفهم بعض السلبية، فدأنا بالولاء لآل البيت رغم ما لحق بهم من خيبة أمل نتيجة تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وخروجه من العراق إلى الحجاز معتزلاً السياسة والناس، إلا أن العراق ظل مصدر قلق للسلطة الأموية، فاضطر الأمويون إلى التشدد في إدارته، فعينوا عليه أكفأ وأقسى ولاتهم .

وساء آل البيت أن يروا خلفاء بني أمية وقد تولوا شؤون المسلمين، وكانوا بالأمس القريب أشد أعداء النبي وآخر من آمنوا به ، كما روعهم فساد أخلاق بعض خلفائهم، وتساهلهم الديني.

ورغم العراقيل التي صادفها الأمويون، فإنهم تمكنوا من إرساء دعائم نظام جديد أملتة الظروف السياسية المستجدة، ومكانة الدولة الإسلامية في ذلك الوقت، ذلك أن العقلية الإسلامية لم تقف جامدة أمام التطورات الحضارية التي شهدتها الدولة الإسلامية، وإنما تفاعلت معها وأنتجت نظاماً يتلاءم مع المبادئ الإسلامية العليا، ولا يخرج عن الإطار العام كما رسمه القرآن الكريم وحددته السنة، ويوحد بين مصلحة الإسلام العليا ومصلحة الأمة من حيث ظروفها السياسية والدنيوية واتجاهات العصر، فكان الانفتاح الحضاري على الشرق والغرب إحدى الخطوات الهامة للأخذ بأسباب التطور.

وكانت ولاية العهد أولى الخطوات التي خطاها الأمويون من أجل تثبيت أقدام أسرتهم، والانتقال بالسلطة من نظام الشورى، الذي ساد في عصر الخلفاء الراشدين إلى النظام الملكي الوراثي، وقد أجازها الفقهاء، في حين رأى بعض المسلمين أن معاوية بتصرفه هذا لم يترك الأمر شورى لجماعة المسلمين. لكن معاوية الذي عاش أحداث الصراع على السلطة منذ وفاة الرسول ، اجتهد في أن يقي الأمة الإسلامية متمزقاً جديداً، فرأى أن يعهد لمن يليه في القيام بأمر المسلمين. فاستخدم ذكاه ودهاءه من أجل ذلك، واستطاع أن يحصل على بيعة أهل الشام والعراق لابنه يزيد، وبقي الحجاز خارج نطاق البيعة، فذهب بنفسه إلى المدينة، والتقى فيها بعدد من زعماء المسلمين وناقشهم في هذا الأمر. ولما أصر هؤلاء على موقفهم الرفض هددهم بالقوة وانتزع البيعة منهم .

لم تقف الفئات المعارضة أمام هذا الوضع الذي اعتبرته شاذاً، مكتوفة الأيدي. إذ انشقت على النظام القائم، إلا أنها لم تحرك ساكناً بانتظار الفرصة المناسبة التي جاءت بعد وفاة معاوية، فقام الشيعة في العراق، كما تمرد الخوارج، وقاد ابن الزبير حركة المعارضة في الحجاز. ونجح المعارضون في أن يضعوا أمام الرأي العام الإسلامي قضية سياسية هامة هي اعتلاء يزيد السلطة دون مسوغ شرعي، مما اضطره أن يواجه الموقف بالشدة .

ونتيجة لذلك، شهد العالم الإسلامي جولات من الصراع العسكري العنيف، تمثلت بخروج الحسين بن علي إلى العراق ومقتله في كربلاء، وخروج أهل المدينة على حكم يزيد، وموقعة الحرة ثم حصار مكة بعد أن تحصن فيها ابن الزبير، وتوقف القتال فيها بموت يزيد وتولية ابنه معاوية الثاني خليفة المسلمين تأييداً لمبدأ الملكية الوراثية. لكن معاوية الثاني كان مريضاً، لم يتمكن من قيادة المسلمين، واضطر أن يتنازل عن خلافته بعد أربعين يوماً من ولايته، مما هدّد الخلافة الأموية بالسقوط وسط أجواء من انقسام المسلمين في الأمصار، والتنافس القبلي، وتنازع الأسرة الأموية، فاقترض الأمر عقد مؤتمر في الجابية لحسم الأمر، وانفقت عدول بني أمية على اختيار مروان بن الحكم خليفة للمسلمين .

أن دولة الخلافة الأموية لم تتأقلم بعد . المتغيرات السياسية المستجدة لجهة اكتساب عنصر الاستمرارية في القيادة، فقد ظلت محتفظة، بطابعها المحلي والقبلي الضيق، ولم تستوعب ما أفرزته العقيدة الإسلامية، وحركة الفتوحات من انقلاب جذري وحاسم في تاريخ المنطقة. وإذا كانت قد نجحت في بداية حياتها السياسية في لعبة التجاذب القبلي ووظيفتها لصالحها، إلا أن ذلك قد ساعد على ضعفها وسقوطها عندما أصاب هذه اللعبة الخلل.

لقد قامت دولة الخلافة الأموية على دعامة أساسية تمثلت بالتمايز العربي، فيالوقت الذي اتسعت فيه آفاق الدعوة الإسلامية، وامتدت أطراف العالم الإسلامي لتشمل العرب وغير العرب من أجناس مختلفة. ولعل الاعتبارات القبلية أكثر ما استبدت بالأسرة الأموية كتيار سياسي حاسم، وهي موصولة الجذور بالنزعة العربية التي سادت جزيرة العرب في العصر الجاهلي، وهذا من حتميات التطور. فالعرب هم مادة الإسلام واللغة العربية هي لغة، الإسلام والأمويون فرع من قبيلة قريش العربية، بل عصبها، وقد كرسّت الدولة الأموية سيادة العرب وسيطرتهم.

والواقع أن هذا الاتجاه العربي، وإن بدا طبيعياً، من وجهة النظر الأموية، إلا أنه أسفر عن تألم أهل البلاد المفتوحة، وتحديداً الموالي، باعتباره يتنافى مع طبيعة الدعوة الإسلامية العالمية، وأتيح لهؤلاء القيام بأدوار نشطة ضمن الحركات المناهضة للحكم الأموي. وكان الشيعة الأقدر على التحاور معهم بحكم المصلحة المشتركة، وهي العداء للنظام.

والثابت أن بروز الموالي ومشاركتهم في الحياة السياسية، خاصة في العراق، لم يؤثر على الوضعية الحركية لدولة الخلافة الأموية إلا في الربع الأخير من حياتها، حين تحول هؤلاء إلى قوة ضاغطة تحالفت مع الأحزاب المعارضة والقيادات التي كانت لها مواقف سلبية من النظام الأموي، وتبلورت في إطار الدعوة العباسية التي ضربت على وتر شعار المساواة. وحدث منذ ذلك الوقت تحول حاسم في

مسار المعارضة تحول معه الصراع العربي إلى صراع يحمل في طياته خلفية اجتماعية وربما عنصرية فارسية .

كما واجه هذا الاتجاه العربي، انقسام العرب على أنفسهم، وذلك أن انتقال مركز الخلافة إلى دمشق، أضفى أهمية متزايدة لعرب الشام، فأصبحوا عماد الدولة الجديدة، وأضحت بلاد الشام في المنزلة الأولى بين الأمصار، واضطرت الدولة الناشئة أن تعتمد في إدارتها على أهل هذه البلاد الذين أمدوها بالعمال والموظفين من أبنائها، مما أحدث صدعاً في بنيان العلاقات القبلية. وتعتبر معركة مرج راهط دليلاً على تمزق وحدة الصف العربي واشتعال نار العصبية بين القبائل العربية.

كان على مروان بن الحكم، على الرغم من قصر عهده أن يتدخل عسكرياً لقمع المعارضين والخارجين على حكمه في الأمصار ، فنجح في مصر وتوفي قبل أن يعيد سيطرة الأمويين على الحجاز والعراق، فقام ابنه عبد الملك، الذي خلفه في الحكم، بمتابعة جهوده، وقد نجح في التصدي عسكرياً لتمرّد القبائل العربية، وقضى على حركتي التوابين وابن الزبير، وأمسك بلعبة التجاذب القبلي، فأعاد اللحمة إلى دولة الخلافة الأموية، ووجد من جديد العالم الإسلامي تحت رايّتها .

وحرص عبد الملك، رغم مشاكله السياسية، على إضفاء الطابع العربي على دولته ليستكمل خطوات معاوية، فكان تعريب الإدارة، ولغة الدواوين والنقود، وهي خطوة أخرى صبغت وجه الدولة بالطابع العربي والسيادة الإسلامية، وترافقت مع نجاحه السياسي، لتضع أساساً صلباً لأعظم الإنجازات في عهد ابنه الوليد، توضحت في اتساع رقعة الدولة الإسلامية إلى مدى لم تصله من قبل ولا من بعد، واستقرار سياسي، وقيام نهضة عمرانية نشطة .

وخلف الوليد أخوه سليمان، وكانت له نظرة سياسية خاصة في إدارة الدولة. وقامت سياسته الداخلية القبلية على أساس التوازن. ويعتبر عهد عمر بن عبد العزيز الذي خلف سليمان، فترة انتقال حَقَّق خلالها هذا الخليفة مثل الحياة السياسية التي ملأت وجدانه منذ شبابه، فانصرف إلى الإصلاح الداخلي، والتمس عطف العلويين أمية، وخفف من أثقال الجزية المفروضة على النصارى، وسوى بين العرب والموالي في الوضع الشرعي ملتزماً بإسقاط الجزية عن أسلم، فكسب بذلك عطف شعوب البلاد المفتوحة وأغرى من لم يكن قد دخل منهم في الإسلام، للدخول فيه.

تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك، وقد اختلف في أخلاقه وعاداته وسياسته عن عمر. وبفعل سياسته القبلية غير المتوازنة نشطت في عهده لعبة التجاذب القبلي مما أدى إلى بعث روح

العصبية بين القبائل العربية، وقد أخذت تتخر في عظام الخلافة الأموية التي بدأ الوهن يتسرب إلى جسمها، كما أن سياسته العدائية للموالي، دفعهم للقيام بحركات مضادة.

لكن دولة الخلافة الأموية انتعشت في عهد هشام بن عبد الملك، الذي خلف يزيد الثاني، إلا أن هذا الانتعاش أشبه بمن يستعيد وعيه أثناء سكرات الموت. وشهدت خراسان خلال عهده صراعاً قليباً أضعف نفوذ العرب في هذه المنطقة من جهة ، وقوى نفوذ الموالي، وبالتالي سلطة العباسيين من جهة أخرى . ويبدو أن نظام الوراثة، الذي أوجده معاوية بن أبي سفيان، لم يعد حلاً لمسألة الخلافة، فتنافس أفراد البيت الأموي بعد هشام للحصول على هذا المنصب دون احترام لهذا المبدأ، مما زاد في تراجع النفوذ الأموي، فزالَت سلطة الأمويين في المناطق الشرقية في عهد مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، ووقعت في أيدي العباسيين وحلفائهم الخراسانيين بعد تفرق كلمة العرب، ثم سيطر هؤلاء على العراق. وكانت معركة الزاب التي قادها مروان إيداناً بسقوط دولة الخلافة الأموية اختتمت فصولها بمقتله في قرية بوسير في مصر عام (١٣٢هـ / ٧٥٠م) .

من مآثر دولة الخلافة الأموية، التي تُذكر لها، أعمالها في مجال السياسة الخارجية؛ فقد نجحت في إحياء حركة الفتوح التي توقفت أثناء نشوب الحروب الأهلية، فأضافت أراض جديدة إلى دار الإسلام كما حافظت على المكتسبات السابقة، فسجلت في هذا المجال تقدماً للمسلمين. ففي الشرق كانت فتوح بلاد ما وراء النهر، وبلاد السند، وبلغت سيادة المسلمين أطراف الهند. وفي الغرب كان استكمال فتح المغرب، ومن ثم العبور إلى الأندلس وفتحها وضمها إلى دار الإسلام، والتوغل داخل القارة الأوروبية في عمق بلاد الفرنجة. أما على الجبهة البيزنطية فظلت الحرب سجالاً بين الطرفين، وتركزت المناوشات في المناطق الحدودية، لكن المسلمين أضافوا أراضي جديدة في أرمينيا وأذربيجان.

وإذا كانت دولة الخلافة الأموية قد حققت تلك الأمجاد الرائعة في مجال الفتوحات وانتشار الإسلام، رغم ما واجهته من صعاب وحركات مناهضة داخلياً، فماذا كانت ستحقق من أمجاد أخرى لو لم تواجه تلك الصعاب التي استنفدت كثيراً من طاقاتها ؟ .

ويسقط دولة الخلافة الأموية، خسر العرب، بشكل عام، السيادة المطلقة ورجحت كفة الفرس بعد قيام دولة الخلافة العباسية، لكن هؤلاء لم يتمكنوا من القضاء على العنصر العربي بشكل نهائي، وقد ظل أفرادهم يشغلون مراكز رفيعة في الإدارة والجيش ويجدون سنداً قوياً في السلالة العباسية الحاكمة. فاحتفظت اللغة العربية بسلطانها المطلق في المعاملات الرسمية، وفي مجمل الحياة الفكرية، وفي الدين فوق كل شيء .